مركز نماء للبحوث والدراسات
Namaa Center for Research and Studies
نماء وانتماء

namacenter

أوراق نماء

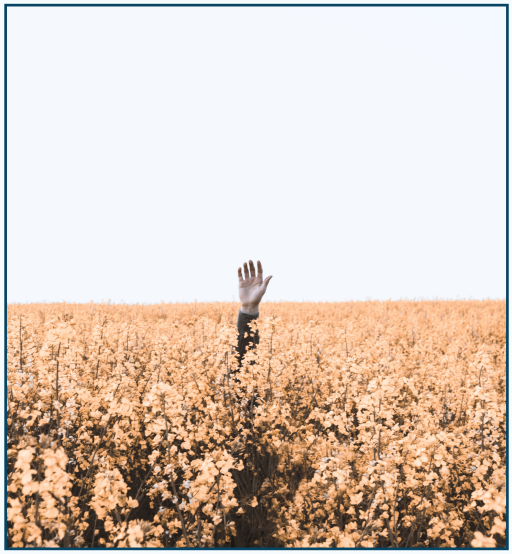

مدخل إلى الأيديولوجيا

سلطان علي الشهري

مدخل إلى الأيديولوجيا

مدخل إلى الأيديولوجيا

تأليف
سلطان علي الشهري

شعبان ١٤٣٩هـ
مايو ٢٠١٨م

المحتويات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٧
الأيديولوجيا . . المفهوم والتطور التاريخي والمعرفي	**٩**
١- المفهوم والتعريفات	**٩**
١-١ مفهوم الأيديولوجيا وتعريفها	٩
١-٢ تحديد مجال الأيديولوجيا	١٣
٢- التطور التاريخي والمعرفي للأيديولوجيا	**١٥**
٢-١ نشأة الأيديولوجيا	١٥
٢-٢ التطور التاريخي والمعرفي للأيديولوجيا	١٦
٢-٢-١ فلسفة الأنوار	١٧
٢-٢-٢ ما قبل الأيديولوجيا	١٧
أفلاطون	١٨
أبو حامد الغزالي	١٨
٢-٢-٣ عصر الأيديولوجيا	١٩
كارل ماركس	١٩
هيغل	٢٠
نيتشه	٢١
فرويد	٢١
كارل مانهايم	٢٢
فيبر	٢٣
٣- الأيديولوجيا وعلاقتها بالفلسفة والمعرفة	**٢٥**

٤- العقل والأيديولوجيا والحقيقة ٢٩

٥- المرجعيات الفكرية والنظريات المفسرة للأيديولوجيا ٣١

٥-١ المرجعيات الفكرية للأيديولوجيا والواقع ٣١

٥-٢ لكن، من يفسر الأيديولوجيا؟ ٣٣

٥-٣ النظريات المفسرة للأيديولوجيا ٣٥

٥-٣-١ النظرية الاجتماعية ٣٥

٥-٣-٢ النظرية النفسية ٣٦

٥-٣-٣ تجربة تفسيرية عبر النظرية النقدية ٣٧

٥-٣-٤ النظرية السياسية والنخب ٣٧

٥-٣-٥ نظريات ما بعد الحداثة ٣٨

٦- علاقة الأيديولوجيا بطرح الأسئلة ٤١

٧- الأيديولوجيا المعاصرة ٤٥

٧-١ الأيديولوجيا السوداء ٤٧

٧-١-١ الأيديولوجيا الجامدة ٤٧

٧-١-٢ الأيديولوجيا المتمددة (السرطانية) ٤٨

٧-٢ الحاجة للأيديولوجيا ٥٠

٧-٣ مستقبل الأيديولوجيا ٥١

المراجع ٥٤

المراجع العربية ٥٤

المقالات ٥٥

المراجع المترجمة ٥٥

المراجع الإنجليزية ٥٦

مُقَدِّمَة

تلقي هذه الورقة الضوء علىٰ الأيديولوجيا من حيث المفهوم والتعريفات المختلفة لها منذ بروز مصطلح الأيديولوجيا وإلىٰ عصرنا هذا، وقد حرصنا علىٰ أن تكون المفاهيم والتعريفات تمثل الشريحة الهامة للفلاسفة السابقين أمثال كارل ماركس وفرويد ومنهايم وغيرهم، وصولًا إلىٰ شريحة بعض المفكرين المعاصرين. وعرجنا بطبيعة الحال علىٰ التطور التاريخي والمعرفي الذي صاحب الأيديولوجيا تفصيلًا وتوضيحًا لتجلية أسرار النظرية الأيديولوجية عبر الزمن.

ثم تدرجنا في توسيع البحث ليشمل مفاهيم تتعلق بالأيديولوجيا قد تكون مصاحبة أو ضمنية أو مناكفة لها، فألقينا الضوء ابتداءً علىٰ تداخل مصطلح الأيديولوجيا مع الفلسفة والمعرفة تحليلًا للعلاقة إن وجدت أو الاختلاف بينها أو بين بعضها.

حرصنا أيضًا علىٰ أن نؤصل لهذا العلم بذكر المرجعيات الفكرية السابقة والحالية والواقع، وهذا يقودنا إلىٰ ذكر التطور المعرفي للأيديولوجيا في مراحله التاريخية من حيث مساهمة الفلاسفة والعلماء الذين كان لهم بصمة في تكون أيديولوجيات منها ما ضعف أو انقرض، ومنها أيديولوجيات متواجدة بيننا، وخلال ذلك ذُكِرَ بعض النقد الذي وُجِّهَ لتلك الأيديولوجيات أو لمؤسسيها.

ولا يكفي أن نذكر المفاهيم والتعريفات، وأبرز العلماء والفلاسفة الذين ساهموا في دراسة الأيديولوجيا أو كوّنوا أيديولوجيا، ونذكر التطور التاريخي والمعرفي، دون أن نذكر أهم النظريات التي تفسر ماهية الأيديولوجيا، وكيف تعمل والوصول إلىٰ النظريات التي تفسر الواقع الأيديولوجي السياسي الذي يحرك العالم.

ومن جانب فلسفي هام ذكرنا علاقة العقل بالأيديولوجيا وحقيقتها، وآلأيديولوجيا معرفة واهية أم سيطرة عقلية أم مزيج بين العقل والحقيقة سواء أكانت لا تناسب توقعاتنا أم لا.

وهذا قادنا لطرح بعض التساؤلات حول الأيديولوجيات ذاتها، وحول علاقتها بطرح أسئلة، ويمكن القول بأن الفلسفة هي الأسئلة التي تبحث في أسرار الأيديولوجيا، في حين أن الأيديولوجيا ذاتها تعتبر مكمنًا معقدًا للأسئلة المفتوحة، التي يمكن للعلم مناقشتها.

وختمنا هذه الورقة بمبحث حول الأيديولوجيا المعاصرة، وخصصنا جزءًا للأيديولوجيات المتطرفة بنظرة عملية.

الأيديولوجيا .. المفهوم والتطور التاريخي والمعرفي

- ١ -

المفهوم والتعريفات

١-١ مفهوم الأيديولوجيا وتعريفها:

إن تحديد مفهوم واحد للأيديولوجيا ليكون جامعًا مانعًا يعد ضربًا من الخيال، فقد اختلف فيه العلماء من ظهور المصطلح وتبلور مفهومه إلىٰ يومنا هذا، إلا أن الكثير من هذه التعريفات والتفاسير السطحية والعميقة للأيديولوجيا تدور في فلك الأصل الفكري والمعتقدي، وأن مجال الأيديولوجيا يرتكز في المجال الاجتماعي والسياسي، وفي المعتقدات حتىٰ تصل مجالاته إلىٰ الاقتصاد والتعليم والإعلام وغيرها.

مصطلح أيديولوجيا يوناني الأصل، مكون من شقين: **الأول** Idea ويعني الفكرة و**الثاني** Logos يعني العلم، فيكون المعنىٰ لكلمة أيديولوجيا (علم الأفكار).

ويرىٰ فريق من العلماء أن أيديولوجيا كلمة لاتينية الأصل، ويقصد بها علم الصور أو الخيال أو علم المثاليات، ويتمثل هذا في التصور الأفلاطوني لأصحاب الكهف ووعيهم الزائف بحقيقة وجودهم[١].

يعرف كارول ماركس (١٨٨٣م) الأيديولوجيا بأنها: «مجموعة منظمة من الأفكار تشكل رؤية متماسكة شاملة، وطريقة لرؤية القضايا والأمور التي تتعلق

(١) د. مراد وهبة. محاضرات في الأيديولوجيا والحضارة، ج٥.

بالأمور اليومية أو تتعلق بمناحي فلسفية معينة سياسية بشكل خاص. أو قد تكون مجموعة من الأفكار التي تفرضها الطبقة المهيمنة في المجتمع علىٰ باقي أفراد المجتمع».

يقول المفكر العربي عبد الله العروي في تمهيد كتابه «مفهوم الأيديولوجيا»: «إن كلمة أيديولوجيا دخيلة علىٰ جميع اللغات الحية. تعني لغويًا في أصلها الفرنسي، علم الأفكار، لكنها لم تحتفظ بالمعنىٰ اللغوي، إذ استعارها الألمان وضمنوها معنىٰ آخر، ثم رجعت إلىٰ الفرنسية، فأصبحت دخيلة حتىٰ في لغتها الأصلية[١].

واختلف الباحثون في تعريف هذا المصطلح، جاء في معجم العلوم الاجتماعية والفلسفية: هي مجمل التصورات والأفكار والمعتقدات وطرق التفكير لمجموعة أمة أو طبقة أو فئة اجتماعية أو طائفة دينية أو حزب سياسي، وتكون الأيديولوجيات عادة مشروطة ومحددة بالظروف المناخية والعادات[٢].

وفي قاموس إلياس العصري (١٩٨٥م) ترد كلمة أيديولوجيا، بمعنىٰ: فن البحث في الأفكار والتصورات أو الفكريات.

ومفهوم «الأدلوجة»[٣] يقابل مفهوم الحق: الحق هو ما يطابق ذات الكون، والأدلوجة ما يطابق ذات الإنسان في الكون، نقول إن فلانًا ينظر إلىٰ الأشياء نظرة أدلوجية نعني أنه يتخير الأشياء، ويؤول الوقائع بكيفية تظهرها دائمًا مطابقة لما يعتقد أنه الحق.

وعرفت صمويل بيكر (١٩٢٣-٢٠١٢) الأيديولوجيا بأنها مجموعة من المرجعيات، تتكون من محددات قيمية متداخلة تساعدنا في تحديد رؤيتنا للعالم والتكيف معه[٤].

---

(١) عبد الله العروي، مفهوم الأيديولوجيا، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثامنة ٢٠١٢، ص ٩.

(٢) معجم العلوم الاجتماعية والفلسفية، نيويورك ١٩٤٤م، ص ١٤٩.

(٣) الأدلوجة: هي تعريب لكلمة أيديولوجيا، د. عبدالله العروي، مرجع سابق، ص ٩.

(4) Becker,S. (1984) Marxist approaches to media studies: the British experience. Critical Studies in Mass Communication. 1,66- 80.p.69.

ويعرفها هول: «الأيدولوجيا هي المرجعيات الذهنية مثل الأفكار، واللغة، والمفاهيم، التي تعمل وفقها جماعات معينة في المجتمع، وتؤثر في رؤية هذه الجماعات أثناء حراكها المجتمعي»[١].

أما ليلكر فيعتبر العنصر الرئيس هو الأفكار المؤثرة علىٰ السلوك «الأيديولوجيا هي مجموعة من الأفكار والمعتقدات التي بوصفها تعمل مرشدة للسلوك أو ضابطًا له»[٢].

وقد استخدم دو تراسي -صاحب السبق في تبلور مصطلح أيديولوجيا- كلمة أيديولوجية بمفهوم أوسع وأشمل باعتبارها علم دراسة الأفكار والمعاني كما هي في الواقع المحدد تاريخيًا، ليست الأفكار في ذاتها، بل لذاتها في معانيها وفي تعبيراتها وأساليبها وتظاهراتها واستخداماتها ودلالاتها في مجتمع معين، وفي مواقف اجتماعية محددة وفي سياق حضاري ثقافي محدد[٣].

أما ديفيد جيري، وجوليان جيري، فيقدمان عددًا من التعريفات الخاصة بمفهوم الأيديولوجيا علىٰ النحو التالي:

الأيديولوجيا هي نسق من الأفكار يحدد السلوك السياسي والاجتماعي.

أو أن الأيديولوجيا -بصورة أكثر تحديدًا- هي أي نسق من الأفكار يبرر خضوع جماعة أو طبقة ما، لجماعة أو طبقة أخرىٰ، مع إضفاء نوع من الشرعية علىٰ هذا الخضوع.

أو أن الأيديولوجيا هي معرفة موسوعية شاملة، قادرة علىٰ تحطيم التحيز، وذات قدرة علىٰ الاستخدام في عملية الإصلاح الاجتماعي[٤].

فيما ذهب «أنتوني جيدنز» في تعريفه للأيديولوجيا إلىٰ أنها مجموعة من الأفكار والمعتقدات المشتركة، التي تعمل علىٰ تبرير مصالح الجماعات المهيمنة.

---

(1) Hall. S.(1986) The proplem of ideology. Journal of Communication Inquiry. 10, (2), 28-44- P.29.

(2) Lilleker, Darrn D. (2006). Key Conepts in Political Communication. London: Sage Publication.

(٣) نبيل رمزي، سوسيولوجيا المعرفة، جدل الوعي والوجود الاجتماعي، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية، ٢٠٠١، ص ١٨.

(4) Jary, D. and Julia,J., Sociology)The Harper Collin Dictionary(, Harper Perennial, N.Y, 1991

وتوجد الأيديولوجيات في المجتمعات كافة، التي توجد بها نظم راسخة لعدم المساواة بين الجماعات. ويرتبط مفهوم الأيديولوجيا ارتباطًا وثيقًا بمفهوم القوة؛ لأن النظم الأيديولوجية تعمل علىٰ إضفاء المشروعية علىٰ تباين القوة، التي تحوزها الجماعات الاجتماعية[١].

والأيديولوجيا أصبحت تطلق الآن علىٰ علم الاجتماع السياسي تحديدًا، ومفهوم الأيديولوجيا مفهوم متعدد الاستخدامات والتعريفات، وهي منظومة من الأفكار المرتبطة اجتماعيًّا بمجموعة اقتصادية أو سياسية أو عرقية أو غيرها، منظومة تعبر عن المصالح الواعية -بهذا المقدار أو ذاك- لهذه المجموعة، علىٰ شكل نزعة مضادة للتاريخ، ومقاومة للتغير، ومفككة للبنيات الكلية. إن الأيديولوجيا تشكل إذن التبلور النظري لشكل من أشكال الوعي الزائف[٢].

أما كارل مانهايم فيشير إلىٰ ما سماه «التشوه الأيديولوجي» والوعي الزائف، أي التفسير غير الصادق الذي يضعه شخص ما. وهذا ما أكد عليه ديفيد هوكس من أن كلمة «أيديولوجيا» تشير أحيانًا إلىٰ طريقة خاطئة في التفكير علىٰ نحو نسقي، ووعي زائف[٣].

وفي ضوء ذلك عرّف الأيديولوجيا بوصفها مجموعة قيم أساسية ونماذج للمعرفة والإدراك، ترتبط ببعضها وتنشأ صلات بينها وبين القوىٰ الاجتماعية والاقتصادية. فإذا أخذنا بتصور مانهايم هذا لمفهوم الأيديولوجيا، نستطيع أن نميز في أي مجتمع طبقي بين أيديولوجيتين وهي:

أيديولوجيا الجماعات الحاكمة التي تريد فرض تصوراتها وأفكارها علىٰ بقية أفراد المجتمع، وتبرير الأوضاع الراهنة والدفاع عنها.

---

(١) أنتوني جيدنز، «مقدمة نقدية في علم الاجتماع»، ترجمة أحمد زايد وآخرين، مطبوعات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ٢٠٠٢.

(٢) أحمد أنور، النظرية والمنهج في علم الاجتماع، محاضرات في كلية التربية جامعة عين شمس، غير مذكور سنة الدراسة. ص. ٣.

(٣) ديفيد هوكس، «الأيديولوجيا»، ترجمة إبراهيم فتحي، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلىٰ للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٠.

وأيديولوجيا الجماعات الخاضعة، التي تحاول تغيير هذه الأوضاع لصالحها وإحداث تغيرات في بناء القوة القائم، بما في ذلك تحقيق العدالة الاجتماعية وتوزيع الدخول توزيعًا عادلًا[1].

وفي ضوء ما سبق نُعرّف الأيديولوجيا بأنها: المعتقدات المرجعية الفكرية التي يتبناها الفرد أو الجماعة في مجتمع ما، لتكون بمثابة المحرك الرئيس للتعامل مع الآخرين والنظر إلىٰ العالم والتكيف مع الحياة.

وإذا أردنا أن نختصر التعريف كمًا وكيفًا فنقول إن الأيديولوجيا هي معتقدات فكرية تراكمية وآنية ينتج عنها سلوك وأسلوب حياة.

١-٢ تحديد مجال الأيديولوجيا:

في إطار معرفة الدلالة الخاصة بهذا المفهوم علىٰ هذا النحو نجد أنه لا بأس من ذكر المجالات التي حددها عبد الله العروي في كتابه «مفهوم الأيديولوجيا» بين ثلاثة معانٍ كبرىٰ للمفهوم تبعًا للمجالات العامة التي برز فيها، وذلك علىٰ النحو التالي:

أولًا: مجال الصراع السياسي: حيث تعني الأيديولوجيا كل تفكير خادع أو تضليلي؛ فالأيديولوجيا هاهنا تتخذ شكل قناع.

ثانيًا: مجال الاجتماعيات: حيث تعرف الأيديولوجيا باعتبارها حصيلة الأفكار والقيم والمثل والتصورات التي تتبناها جماعة ما، وهي التي تحدد لها رؤيتها للواقع الاجتماعي والتاريخ؛ فالأيديولوجيا هنا تعني رؤية كونية.

ثالثًا: مجال الأبستمولوجيا أو نظرية المعرفة: فليست الأيديولوجيا في هذا المجال سوىٰ المعرفة الظاهرية السطحية، في حين أن العلم هو المعرفة الموضوعية العميقة بكنه الأشياء[2].

---

(١) دينكين ميتشيل، «معجم علم الاجتماع»، ترجمة إحسان محمد الحسن، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨١.

(٢) عبد الله العروي، مفهوم الأيديولوجيا، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثامنة ٢٠١٢، مرجع سابق.

- ٢ -

التطور التاريخي والمعرفي للأيديولوجيا

٢-١ نشأة الأيديولوجيا:

مصطلح الأيديولوجيا ليس بالقديم، فلم يعرف كعلم ومصطلح إلا منذ ما يقارب مائتي عام، وهذا لا يعني أن الناس لم يكونوا تحت وطأة الأيديولوجيا، فقد كانوا ينظمون حياتهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وفقًا لفكرهم ومعتقداتهم وأطرهم المرجعية، لذلك كانت مسارات الحياة منذ نشأتها وإلىٰ يومنا هذا تخضع لأفكار الناس ومعتقداتهم، وإن لم يُعرف لهذا النمط اسم أو تفسير علمي قبل اكتشافه.

حتىٰ علىٰ المستوىٰ العقدي الديني فالتلمود والكتب السماوية التي نزلت علىٰ أنبياء الله المرسلين لليهود كانت تنظم كثيرًا من أمور حياتهم، وكذلك الحال بالنسبة للقرآن الكريم الذي نزل ليعمل علىٰ تنظيم حياة الناس، ويكون الإطار المرجعي للمسلمين في شتىٰ مجالات الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وحتىٰ السيكولوجية والفلسفية.

وكان الإنجيل يعمل علىٰ النهج والفكرة التأطيرية أنفسهما إلا أن الظلام الذي رافق تسلط الكنيسة علىٰ حياة الناس، أدىٰ ذلك إلىٰ التمرد مع مجيء فلسفة الأنوار في عصر النهضة لتعمل علىٰ إضعاف ثم إقصاء سلطة الدين عن الفكر والحرية، فنتيجة لذلك حصل فراغ روحي وفكري أدىٰ إلىٰ ظهور مفهوم الأيديولوجيا الذي ملأ الفراغ وأزاح التفكير الميتافيزيقي.

ثم إن هناك شبه إجماع علىٰ أن نشوء الأيديولوجية بالمعنىٰ المعاصر للكلمة كرؤية نسقية Systematic للعالم والواقع الاجتماعي، ارتبط بصعود الرأسمالية Capitalism كنمط في الإنتاج ترافق مع مساحة ديموقراطية أوسع، وانتقال السلطة السياسية من الكنيسة إلىٰ الأحزاب السياسية، وتنفصل طبقات اجتماعية جديدة علىٰ أسس اقتصادية بدلًا من الأسس الطائفية والإثنية[١].

وأول من وضع مفهوم الأيديولوجيا هو الفيلسوف الفرنسي أنطوان ديتوت دو تراسي 1836 - 1754 De tracy. وقد تأثر دو تراسي بنظرية الفيلسوف الإنجليزي جون لوك التجريبية، كما تأثر بمذهب الفيلسوف الفرنسي كوندياك الذي يرد كل معرفة أو إدراك إلىٰ أصول حسية بحتة[٢].

كان دو تراسي ينتمي إلىٰ وسط المثقفين الفرنسيين ذوي النزعة الأنوارية، أي التي ترتبط بدراسة أصول الآراء وطبيعتها وتطورها، ثم استعمله بعد ذلك نابليون -لكن بشحنة قدحية هذه المرة- للحط من شأن هؤلاء المثقفين الأحرار أصدقاء دوتراسي أمثال الفيلسوف الحسي «كوندياك» (١٧٨٠م)، والطبيب «كابانيس» (١٨٠٨م)، والأخلاقي «قسطنطين فرانسوا فولني» (١٨٢٠م). وقد ارتبط معظم هؤلاء بالثورة الفرنسية، وتأثروا بالتقليد التجريبي في المعرفة، وبفلسفة الأنوار، وبمناهضة الفكر الميتافيزيقي الذي يمثل في نظرهم طفولة الإنسانية، وكانوا مولعين بتقدم العلوم الطبيعية، ومن الداعين لإقامة نظام سياسي تربوي جديد.

٢-٢ التطور التاريخي والمعرفي للأيديولوجيا:

لعل فلسفة الأنوار والثورة الفرنسية تعتبران مفصلًا تاريخيًّا للأيديولوجيا، ولا يمكن لباحث أو كاتب أن يسهب في دراستها دون التطرق لهذه الفلسفة التي كانت الشعلة الحقيقية للأيديولوجيا.

---

(١) بيرك، باري، نظريات ما بعد الحداثة، ترجمة حارث حسن وباسم خريسان، مجلة المعرفة، وزارة الثقافة، دمشق، العدد ٤٦٧، آب-أغسطس ٢٠٠٢.

(٢) هنري ايكن، عصر الأيديولوجية، ترجمة فؤاد زكريا، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٣، ص ٦٣.

٢-٢-١ فلسفة الأنوار

كان القرن الثامن عشر عهد صراعٍ بين الكنيسة والفلسفة، وكان كل فريق يرىٰ أن الفريق الآخر يحوك مؤامرة ضد النوع الإنساني لغرض غير أخلاقي. والفلاسفة لم يكونوا يجنحون إلىٰ فرضية الشيطان رغم أن عبارة الظلام التي كانوا يلصقونها بالكنيسة تومئ إلىٰ ذلك. وبالاستغناء عن فرضية الشيطان فُتِحَ الباب أمام البحث في أصل الفكر غير المطابق للواقع فظهر سؤال: كيف نفكر تفكيرًا سليمًا؟ ثم حُوِّرَ السؤال: كيف نفكر؟ فالأول في نطاق المنطق، والآخر يبحث في جميع المؤثرات في الفكر فهو يهدف إلىٰ تحرير المجتمع من سلطة الموروث الذي لا يعرف له أصل عقلي. قد مهدت فلسفة الأنوار الطريق لظهور مفهوم الأدلوجة. ولم يكشف المشروع إلا عن جانب واحد من جوانب المشكلة ويتعلق الأمر بتأثير أفكار موروثة علىٰ الفكر الفردي، دون النظر في أصل تلك الأفكار الموروثة.

نستخلص من المواقف الثلاثة أن مفهوم الأدلوجة مرتبط ارتباطًا عضويًّا بمفهومي المجتمع والتاريخ.

تقرر فلسفة الأنوار أن الظروف (الأنظمة الاجتماعية والأفكار الموروثة) تكون حجابًا (قناعًا) يمنع الوصول إلىٰ الحقيقة. مع الثورة الفرنسية انتشرت دعوة الأنوار وانتقل الاهتمام من مشروع «علم الأفكار» إلىٰ إصلاح الفكر بالكشف عن الأوهام التي تعكر صفاءه. وأصبحت الأدلوجة تعني تلك الأوهام التي يستغلها المتسلطون[١].

٢-٢-٢ ما قبل الأيديولوجيا:

في العصور البدائية وعصور ما قبل التنوير كانت النزاعات بين الناس هي النتيجة النهائية للمعتقدات والتفكير المهيمن باستخدام القوة والاستبداد، إلا أن اكتمال التصور الأيديولوجي في العصور السابقة لم يكن حاضرًا لدىٰ المفكرين والفلاسفة بشكل واضح كما في عصر التنوير وما قبل الثورة الفرنسية.

---

(١) مفهوم الأيديولوجيا، عبد الله العروي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الثامنة ٢٠١٢م، ص ٢٥.

وهذا يدعونا لسبر أغوار فكر ونتاج هؤلاء الفلاسفة وما تمخض عنهم في المجالات قبل الأيديولوجيا، وهذه إطلالة مختصرة علىٰ بعضهم:

أفلاطون

يؤكد أن المُثل أو الأفكار أكثر أصالة وحقيقة من العالم المادي. وإذا اعتبرنا العالم الموضوعي هو الواقع الحقيقي ارتكبنا خطأ هو في الوقت نفسه خطيئة أخلاقية.

ويقصد أفلاطون أن يشير إلىٰ العالم المرئي يتألف من مجرد ظلال للأشكال المثالية التي لا سبيل للإدراك الإنساني المعتاد إلىٰ بلوغها. وليس هذا الإدراك حافلًا بالقصور فحسب كما يومئ أفلاطون، بل إن من طبيعة هذا القصور أن يجيء متنكرًا أيضًا بحيث يبدو من البديهي الواضح بذاته للكائنات البشرية أن العالم المرئي هو وحده العالم الحقيقي[1].

برزت إمكانية التناقض بين الفكر والواقع. وبرزت الفلسفة اليونانية في تبيين سبب هذا التناقض بين الوجدان والواقع: إما أن الوجدان لا يعكس بوضوح الواقع الحق (عطب في الحواس أو خلل في العقل)، أو أن قوة خارجية قاهرة تتعمد وقعه في الغلط (الغواية).

أبو حامد الغزالي:

مفارقة الفكر للواقع برزت عندما أوّلت الفرق حقيقة واحدة في كتاب منزل تأويلات متضاربة، وتعصب المرء واعتناقه دعوةً متناقضة البرهان هي مسألة ليست من قبيل المنطق ولذلك لا تنفع فيها المناظرة الكلامية كما يقرره الغزالي؛ لأن الباعث إلىٰ ذلك هو عداوة مستحكمة ضد الإسلام.

والغزالي يطالب بتدخل السلطان لإيقاف الباطني عند حده. ويؤكد الغزالي أن البرهان يقي المرء السليم عقلًا وعقيدة من السقوط، أما من سقط بالفعل فلم ينفع معه إلا اللجوء إلىٰ القهر. وسبب الغواية هو الشيطان. فالغزالي مُنع من تصور مفهوم الأدلوجة بسبب فرضية الشيطان.

---

(١) ديفيد هوكس، «الأيديولوجيا»، ترجمة إبراهيم فتحي، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلىٰ للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ١٤.

٢-٢-٣ عصر الأيديولوجيا:

كما ذكرنا سابقًا أن الأيديولوجيا كانت حاضرة منذ القدم لكن ليس بشكلها المعروف حاليًا، وما فكر وفلسفة القدماء إلا شاهد علىٰ ذلك الحضور غير المتشكل علميًا ومعرفيًا، ومنذ أن قام دو تراسي بوضع حجر الأساس للأيديولوجيا قام من بعده الفلاسفة وعلماء الاجتماع ثم علماء السياسة بالبحث والكتابة عن الأيديولوجيا، ومنهم من نقدها ومنهم من أعطاها حجمًا يناسب أهميتها، وفي الأسطر القادمة نعرج علىٰ بعض أهم من ساهموا في مجال الأيديولوجيا، ومنهم:

كارل ماركس

أعطىٰ ماركس كلمةَ الأدلوجة أهميةً، إذ استعملها في معانٍ مختلفة ومنها النظرية المتعلقة بالأدلوجة كوهم. تأثر بفلاسفة الأنوار إلا أنه كان وارثًا للفلسفة الألمانية والهيغلية خاصة. فماركس يثبت حقيقة الواقع بنقد أوهام الغير. فنقده مضعّف، ينقد أقوالًا كانت هي ذاتها نقدًا لأقوال أخرىٰ. فيلاحظ ماركس أن المقالة المادية التي ترىٰ أن الإنسان وليد الظروف والتربية، وبالتالي أن الإنسان يتغير بتغير الأوضاع وتجديد التربية، تنسىٰ أن الإنسان هو الذي يغير الأوضاع وأن المربي نفسه محتاج إلىٰ التربية. فلا يجب أن ننقد الظروف القائمة بل يجب أن نحلل كيف تكونت تلك الظروف.

بالرجوع إلىٰ التاريخ كتطور واقعي ليميز بين الوعي الصادق (الحكم المطابق للواقع)، وبين الوعي الزائف (الأدلوجة). ويرتقي ماركس ويستعمل الأدلوجة استعمالًا حياديًّا. فيجعل الفكر الألماني:

أ- أيدلوجيًّا لأنه محدد.

ب- قوميًّا لأنه يحصر رؤيته في ألمانيا.

ج- اجتماعيًّا إذ يعتبر فلسفة الأنوار حقيقة مطلقة.

فالأيديولوجية في الخطاب الماركسي مرتبطة بالذات الفردية الفاعلة، وهو ما جعل ميشال فوكو ينتقد ربط الأيديولوجيا بالذات الفردية الفاعلة والوعي، وعد النظر إلىٰ الأيديولوجيا بوصفها وعيًا زائفًا نظرًا مثاليًّا ذا نزعة إنسانية، ما دامت

الأيديولوجيا بالنسبة له تنتمي إلىٰ ميدان الوعي والشعور، فهي مرتبطة ببنيات خارجية بالنسبة للذات والوعي، ومندرجة إنتاجًا وتوزيعًا في إطار مؤسسات وأجهزة اجتماعية تتولىٰ تعهدها ورعايتها وتوزيعها علىٰ الأفراد.

هيغل

يقول هيغل إن دعوة فلسفة الأنوار إلىٰ العقل كانت ضرورية إلا أن العقل في مفهومها كان مجردًا وفارغًا من أي مضمون. والمجرد لا يعطي مقياسًا للتعامل مع الواقع. وقد ميزت الفلسفة الألمانية بين العقل المجرد القياسي الصوري التجزيئي «الإعقال» الذي يصلح للفهم فقط، وبين العقل المشخص التركيبي الموضوعي المبطن في الأشياء «حكمة». تخلف الدول وراءها قوانين وأعمالًا فنية وغيرها من الآثار، ويسمىٰ هيغل بالروح الموضوعي تلك المخلفات؛ لأن روح الدول تتجسد في تلك الماديات. تجسدت روما في قوانينها ومصر القديمة في معابدها وثقافة اليهود في العهد القديم. وهذا يعني أن الآثار ليست آثارًا إلا إذا استعادت روحها الأصلية. كذلك لا يستطيع المؤرخ محاورة الآثار المادية إذا لم يهتد إلىٰ إحياء الروح الذي أوحىٰ بها. وهنا يعترضنا مشكلان: هل نبذ عقلية الحاضر شيء ممكن؟ وهل إحياء روح الماضي في استطاعة البشر؟[1].

يعتقد هيغل أن روح التاريخ واحد؛ لأن قصد التاريخ الإنساني العام هو تحقيق الحرية. ولا يعني التاريخ هنا مجرد الماضي الموروث، بل يعين منطق الأحداث ومحركها الباطني.

كان هيغل يرىٰ في المنطق قانون التاريخ الباطني وفي التاريخ تحقيق المنطق. يعبر عن قانون المنطق هكذا: كل حقيقة هي حقيقة في الآن وغير حقيقة فيما غير الآن. تظهر خطأ في وقت لاحق لوقتها، لكن بالنظر إلىٰ المطلق فهي كحقيقة مرحلية ذات قيمة دائمة. ويعبر عن قانون التاريخ هكذا: إن كل ثقافة تمثل الروح المطلق في فترة معينة، فهي بالنسبة للفترة اللاحقة ناقصة، لكنها بالنظر إلىٰ التاريخ العام تامة كاملة.

---

(١) ينظر: مفهوم الأيديولوجيا، عبد الله العروي، المركز الثقافي العربي، بيروت ١٩٩٣م.

ونستخلص أنه من العبث فهم آثار الماضي انطلاقًا من قيم الحاضر؛ لأن الحاضر لا يمثل المطلق، ويمثل روح كل حقبة المنطق العام الكامن من وراء كل إنتاجاتها. فروح العصر بمثابة المفتاح الذي يعيد الحياة إلىٰ آثار الماضي.

نيتشه

يقرر نيتشه أن القيم الأخلاقية الأوروبية ترجع إلىٰ ينبوع واحد. وهي ثقافة المستضعفين الذين أبدعوا قيم العدل والمساواة والخير والضمير، فهدف الأخلاق والثقافة كان الانتقام من تصرفات القوي، وما المسيحية والاشتراكية إلا صورة من غل وحسد الضعفاء. إن مضمون النيتشوية رفض المفاهيم التي شيدت عليها الثقافة الغربية: العقل، الحقيقة، الإنسان. ترفض النيتشوية بعنف وتنقد نقدًا لاذعًا معتقدات الإنسان المتحضر. وهي قد أغرت العقول لسببين:

أولًا: لأنها تخاطب نخبة تشك في قيم النصرانية والليبرالية التي تحيا حياة بلا قيد أو قانون.

ثانيًا: لأنها تحارب المسيحية بسلاح الليبرالية، والليبرالية بسلاح الاشتراكية، والاشتراكية بسلاح العلم الطبيعي.

فالأدلوجة عند نيتشه هي غل المستضعفين وضحايا الحياة، وإذا كانت عند ماركس قناعًا يخفي قانون تقدم التاريخ، فهي عند نيتشه تبعد عن الحياة.

فرويد

كان من المنتظر أن يتوق علماء النفس إلىٰ أن يروا الدوافع الحيوانية من خلف العقل الواعي بذاته. إن الأحقاب المنسية أهم بكثير من القسم الذي نغفله من تطور الإنسان الطبيعي، علينا أن نصغي إلىٰ همس تلك الأحقاب الذي غطاه ضجيج الوعي؛ لنكتشف الحقيقة التي تحجبها تركيبات العقل الوهمية. إن الحياة تهدف إلىٰ الاستمرار ليس إلا، ولكي تستمر تستعمل الرغبة، وإن العقل تحت تصرف الرغبة. والتركيبات الذهنية ليست سوىٰ أقنعة تختفي وراءها أهداف الرغبة.

يرفض فرويد التفسير القائل إن إقناع الفرد مبني علىٰ النفس الفردية، بل إن الفرد لا ينفرد إلا بقسم ضئيل جدًّا من نفسانيته. أما القسم الأكبر فهو نفسانية جمعاوية مشتركة. فالأنا هي وليد التاريخ الغريب، غير متجذر ولا مستقر، وعندما يكون الفرد في حشد فإنه يكون مسرحًا لعمليتين:

أولًا: التماهي مع الآخرين، وبالتالي ينتج التآخي والتغلب علىٰ الخوف والقلق.

ثانيًا: تشخيص الأنا، وينتج تخلٍ عن قيود العقل واطّراح أعباء المسؤولية.

الأخلاق والأديان والأساطير والأنظمة الاجتماعية والأعمال الفنية والوقائع هي رموز تشير إلىٰ أهداف غريزية تتقمصها الرغبة. فإذا فهمناها علىٰ أساس العقل فإنها تقودنا إلىٰ أوهام وبالتالي تستر الحقيقة، وإذا أولناها حسب قانون الرغبة فإنها ترشدنا إلىٰ الحقيقة[1].

كارل مانهايم

أوضح كارل مانهايم هذه الفكرة (أي أن الأيديولوجيا قابلة للتغيير والتعديل وفق ما يطرأ علىٰ المجتمع من أوضاع ومواقف تتطلب هذا التغيير) فيقول: «إن السؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: كيف يستطيع الإنسان أن يحيا ويستمر في حياته وتفكيره في وقت أصبحت فيه الأيديولوجيا واليوتوبيا تفرضان نفسيهما علىٰ مسارات حياته؟ فقد اعتقد الإنسان منذ وقت طويل أن تفكيره هو جزء من وجوده الروحي، وأنه ليس حقيقة واقعية حسية، ولكن هذا الاعتقاد قد تغير حتىٰ من داخل الإنسان نفسه. وقد كان التغير الأيديولوجي يعني لدىٰ الإنسان إعادة توجيه للقيم التي يشتق منها السلوك. ولكن في العصر الحديث تعاظم الاعتقاد بأننا لا يمكن أن نعيش علىٰ وتيرة واحدة، أو علىٰ مبدأ فكري واحد.

قدم مانهايم مبدأ يكشف عن أن كل المعرفة إنما ترتبط بالوضع ومجموعة الظروف الاجتماعية التاريخية، وأن كل عصر إنما يعرض أسلوبه وطريقته الخاصة في التفكير بحيث لا يمكن المقارنة بين هذه الأساليب وحتىٰ ضمن كل عصر؛ لأن هناك ميولًا متعارضة إزاء المحافظة والتغيير، فالأولىٰ تنتج الأيديولوجيات والثاني ينتج الطوباويات[2].

---

(١) ينظر: «مفهوم الأيديولوجيا» لمبارك عامر بقنه بتاريخ: ١٧ ديسمبر ٢٠١١م علىٰ موقع: اتجاهات معرفية www.bugnah.com.

(٢) د. بكري خليل، الأيديولوجيا والمعرفة، دار الشروق للنشر والتوزيع، رام الله، الطبعة الأولىٰ ٢٠٠٢، ص ٩٨.

فيبر

إن علم الذهنيات كما تصوره ديلثاي تأسس منهجيًا علىٰ رفض فلسفة التاريخ الهيغلية والمادية الماركسية، مع المحافظة علىٰ مفهوم النظرة إلىٰ الكون، التي ألصقها بالفرد ونزواته النفسانية بدلًا من أن يضيفها إلىٰ دولة أو طبقة. وأكد فيبر ذلك إذ يقول إن الحدث الإنساني لا يخضع لعلة واحدة، فلا سبيل إذن إلىٰ تفسيره وتعليله.

ولا يرىٰ فيبر فائدة من ربط الذهنيات بالقاعدة المادية؛ لأنه يرىٰ أن السبب المادي يقود إلىٰ نتيجة مادية لا إلىٰ قيمة؛ لأن القيمة صفة زائدة علىٰ الواقعة يلصقها الفرد بها بكل حرية. إن الذهنيات التي تحددها الظروف هي صورة مطابقة لتلك الظروف، أما الأحكام القيمية فهي التي تكيف الظروف وتجعلها إما إيجابية وإما سلبية. والظروف المادية تفسر تأثير القيم، ولكنها تعجز عن تبريرها.

وعند فيبر لا توجد مطابقة تلقائية بين الواقعة التاريخية وبين صورتها في ذهننا، إن الباحث هو الذي يفرز ظاهرة يجعل منها ميزة أساسية أو قيمة، ثم يركب نموذجًا ذهنيًّا علىٰ أساس تلك الميزة ويسميه رأسمالية أو كافينية.

وجد فيبر علاقة ممكنة بين روح الرأسمالية وأخلاق الكالفينية ثم وقف عند هذا الحد. فمنهج فيبر هو الإمساك عن الحكم علىٰ القيم المحورية التي شيدت علىٰ أساسها النماذج الذهنية. إن ماركس يضع القيمة في الواقع في حين أن فيبر يفصل القيمة نهائيًّا عن الواقع. الواقع عنده غير معروف بكيفية جزمية والقيمة ذاتية بالدوام، لا يبررها شيء.

- ٣ -

الأيديولوجيا وعلاقتها بالفلسفة والمعرفة

من الوهلة الأولىٰ يمكن إدراك أن المصطلحات الثلاث الأيديولوجيا والفلسفة والمعرفة حيز فكري، لكن هل هي شيء واحد أم تختلف؟ وما مدىٰ العلاقة حال الاختلاف؟ هذا يجرنا إلىٰ البحث في ماهية كل مصطلح علىٰ حدة، ثم محاولة استنتاج العلاقة بينها إن وجدت ومدىٰ تلك العلاقة.

في المباحث السابقة تحدثنا عن الأيديولوجيا تعريفها ومفهومها، وأشرنا إلىٰ أنها المعتقدات المرجعية الفكرية التي يتبناها الفرد أو الجماعة في مجتمع ما؛ لتكون بمثابة المحرك الرئيس للتعامل مع الآخرين والنظر إلىٰ العالم والتكيف مع الحياة.

إن الأيديولوجيا تقوم بدور الوسيط الفكري؛ لأنها نسق رمزي يستخدم كنموذج لأصناف أخرىٰ اجتماعية ونفسية ورمزية، وهي قد تشوه الواقع أو تخطئه، لكنه تشويه يعكس حقائق معينة ويطمس أخرىٰ لتوصيل رسالة معينة للمؤمنين بها.

قوة الأيديولوجيا تكمن في قدرتها علىٰ الإحاطة بالحقائق الاجتماعية وصياغتها صياغة جديدة، فهي لا تستبعد عناصر معينة من الواقع بقدر ما تسعىٰ لتقييم نسق يضم عناصر نفسية واجتماعية ودينية وسياسية وطوباوية.

أما الفلسفة فهي باختصار كلمة مشتقة من اللفظ اليوناني فيلوسوفيا، وتعني حرفيًا «حب الحكمة» وهي دراسة المشكلات العامة والأساسية التي تتعلق بأمور كالوجود، والمعرفة، والقِيَم، والعقل، واللغة، والمنهج الفلسفي يتضمن

التساؤل، والمناقشة النقدية، والجدال بالمنطق، وتقديم الحجج في نسق منظم، من أمثلة الأسئلة الفلسفية التساؤل عن إمكانية معرفة أي شيء وإمكانية إثبات تلك المعرفة، عن الوجود وعمّا هو موجود حقًا، عن الصواب والخطأ، عن كيفية عيش حياةٍ ذات معنىٰ، وعمّا إذا كان الإنسان مخيّرًا أم مسيّرًا.

وتعني المَعْرِفَة الإدراك والوعي وفهم الحقائق عن طريق العقل المجرد أو عن طريق اكتساب المعلومة عن طريق إجراء تجربة وتفسير نتائج التجربة أو تفسير خبر، أو من خلال التأمل في طبيعة الأشياء وتأمل النفس أو من خلال الاطلاع علىٰ تجارب الآخرين وقراءة استنتاجاتهم، إن المعرفة مرتبطة بالبديهة والبحث لاكتشاف المجهول وتطوير الذات وتطوير التقنيات.

والمعرفة أيضًا هي ثمرة التقابل والاتصال بين الذات المدركة وموضوع مدرك، وتتميز عن باقي معطيات الشعور، من حيث إنها تقوم في آن واحد علىٰ التقابل والاتحاد الوثيق بين هذين الطرفين[1].

وقدم لنا الدكتور عبد الوهاب المسيري تعريفًا إجرائيًا لكلمة معرفة وهو أقرب إلىٰ الأذهان لدارس الفلسفة بقوله: «المعرفي هو الكلي والنهائي وتعبير الكلية هنا يفيد الشمول والعموم في حين أن النهائية للوجود تعني غائيته وآخره وأقصىٰ ما يمكن أن يبلغه الشيء».

ومن خلال ما سبق يمكن أن نستنتج أول علاقة تربط المصطلحات الفكرية الثلاثة الأيديولوجيا والفلسفة والمعرفة، وهو أن الفلسفة إحدىٰ طرق إنتاج المعرفة، في حين أن تراكم المعارف مع وجود عوامل أخرىٰ متعددة -مثل: الرغبة، والقدرة، والذكاء- تُخّرج لنا فلاسفة، ولا يمكن أن ندرك معنىٰ الأيديولوجيا وكيفية نشوئها وتغلغلها عند الأفراد والجماعات إلا من خلال المعرفة وأفضل من يتدارس الأيديولوجيا هم الفلاسفة، بل إنها خرجت كمصطلح وعلم من معارفهم التراكمية.

ومن جانب آخر يمكننا إدراك أن الأيديولوجيا نوع من أنواع الوعي الحقيقي والمزيف، وهذا الوعي المعرفي مستمد من العقل والتاريخ والعلم ترجمت

(١) إبراهيم مدكور، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٨٣، ص١٨٧.

الفلسفة العقلانية وغير العقلانية هذه المعارف العقلية والتاريخية والعلمية ترجمة أيديولوجية لتنتج أنماطًا من الإدراك، ثم علامات التبني ثم تنصقل الأفكار وأخيرًا يظهر السلوك النهائي.

وكما أن الأيديولوجيا تعتبر فكرًا أو مذهبًا فإن الفلسفة تعتبر منهجًا وطريقة معقدة لفهم الكل والجزء، إلا أن الفيلسوف لا يمكن أن يكون بمعزل عن أيديولوجيا حتىٰ لو لم يدرك ذلك، فهو من خلال تقمصه دور الباحث عن الحكمة، يغوص في بحور المعرفة ويبدأ بسن أيديولوجيته الخاصة فضلًا عن تأثره بأيديولوجيات الجماعة أو الدين.

ومن باب التفريق بين الفلسفة والأيديولوجيا يمكن أن نعتبر الأيديولوجيا إيمانًا في حين نعتبر الفلسفة فكرًا نقديًّا، والأيديولوجيا جوابًا مغلقًا، ونعتبر الفلسفة سؤالًا مفتوحًا، كما أن الأيديولجيا يقين في حين أن الفلسفة شك[1].

ومن الطريف قول البعض بأن الأيديولوجيا قد تقتل لكن الفلسفة لا تقتل! ومثال ذلك أن رجال الدين في أوروبا قتلوا الفلاسفة، لكن الفلاسفة لم يقتلوا رجال الدين.

إلا أن فلسفة الفلاسفة لم تؤيد الاستنتاج السابق، حيث إنه في أثناء الانقلاب علىٰ سلطة الكنسية في أوروبا لم تقبل أيديولوجيا فلسفية أخرىٰ هي أيديولوجيا دينية، فحاربتها حتىٰ أقصتها، وهي بذلك حلت كأيديولوجيا جديدة تنويرية بديلة للقديمة الرجعية.

وبالتالي فإن الفلسفة بنقدها كل الجوانب الميتافيزيقية، عبرت عن أيديولوجيتها الخاصة برفضها التسليمَ للجانب الغيبي وقبول الجانب العلمي المطلق، وهذا ذاته أيديولوجيا.

وخلاصة القول أن الفلسفة والأيديولوجيا تتمحوران حلو المعرفة، فلا يمكن أن تتكون أيديولوجيا للفرد أو الجماعة إلا من خلال اكتساب معارف، ولا يمكن للفلسفة أن تقحم نفسها في كل شيء نقدًا وتشريحًا قبولًا ورفضًا إلا من خلال بوابة المعرفة.

---

(١) شايع الوقيان، متىٰ تصبح الفلسفة أيديولوجيا؟، جريدة عكاظ، ٢٣ أبريل ٢٠١١م.

- ٤ -

العقل والأيديولوجيا والحقيقة

ليس بالغريب لو قلنا إن الأيديولوجيا لا تمثل حقيقة بقدر ما تمثل فكرًا وسلوكًا، ومفهوم منهايم يدل علىٰ ذلك فهو «يرىٰ الاكتفاء بإخضاع الأيديولوجيا لمعيار أصالتها وصحتها واتساقها الذاتي، وليس لمعيار الحقيقة فالمشاريع المستقبلية لا تعد مجرد صور خيالية، بل نتيجة تأملات، تبتغي أن تكون معرفة ذات حظ من الصدق والحقيقة»[١].

في حين أن الدكتور بكري خليل عكس هذا التصور، فهو يجد تحليلًا مختلفًا للعقل الأيديولوجي خلاصته أن كل مسعىٰ يحتكر الطريق إلىٰ الحق ويدعيه لنفسه، إنما يعكس عملية قلب التأويل إلىٰ مذهب أو معتقد، ويرىٰ علي حرب أن تلك العملية إنما تنجم من تحول مهمة العقل إلىٰ مهمة دفاعية مغلقة لا تنتج إلا مقدماتها، وهذه هي صفة العقل الأيديولوجي، الذي يجعل التبرير من دون التعليل مهمته المعيارية التي تستعيد المعايير[٢].

ونستطيع أن نقول إن العقل يتدخل في الأيديولوجيا من خلال بلورة المفاهيم التراكمية، التي هي أصلًا المعتقدات المكتسبة والممارسات الاجتماعية والجوانب الفطرية إلىٰ فكر متسق مع الحقيقة الداخلية وينتج عنها سلوك فعلي تدور رحاه في بواطن العقل البشري.

---

(١) د. بكري خليل، الأيديولوجيا والمعرفة، مرجع سابق، ص ١٥١.

(٢) د. بكري خليل، الأيديولوجيا والمعرفة، مرجع سابق، ص ١٥١-١٥٢.

في حين نجد مشككين في مصداقية الأيديولوجيا ويرىٰ أنها نتيجة عملية، وهذا هو منهج براجماتي وما هو إلا نتيجة وليست نتيجة لبورة المفاهيم التي تمت من خلال العقل لتصبح أيديولوجيا حقيقية.

وبالفعل تجد من الفلاسفة والعلماء من ينظر إلىٰ الأيديولوجيا علىٰ انها نظرية أو وعي زائف، ومنهم من يدرجها ضمن المهام العقلية الاجتماعية أو الحياتية، إلا أن الفصل بالقول بصحة أحد الاتجاهين لايكون بهذه السهولة، فكل يستند علىٰ براهين واستدعاءات واقعية، كما أنهم يسيرون ضمن مدراس كبرىٰ من حيث النظر للأيديولوجيا والنظريات المفسرة لها، مثل المرسة الماركسية والمدرسة الفرويدية والهيغلية والمنهايمية وغيرها من المدراس الفلسفية.

- ٥ -

المرجعيات الفكرية والنظريات المفسرة للأيديولوجيا

٥-١ المرجعيات الفكرية للأيديولوجيا والواقع:

«اصطنع البشر باستمرار، حتىٰ الوقت الحاضر، تصورات خاطئة عن أنفسهم وعن ماهيتهم وعما يجب أن يكونوه. ولقد نظموا علاقاتهم وفقًا لأفكارهم عن الله والإنسان العادي إلخ؛ ولقد كبرت منتجات عقولهم هذه حتىٰ هيمنت عليهم، فإذا هم الخالقون ينحنون أمام مخلوقاتهم. ألا فلنحررهم إذن من الأوهام والأفكار والعقائد والكائنات الخيالية التي يرزحون تحت نيرها . .»[١]. تلك الكلمات هي المنطلقات التي قامت عليها الأيديولوجيا الألمانية وانطلق منها كارل ماركس لنقد تلك الأيديولوجيا.

ولعلنا نستطيع القول بأن الفلاسفة هم سادة الأيديولوجيا علىٰ أساس الاكتشاف لماهية الأيديولوجيا وأنواعها وصفاتها وخصائصها ووظائفها، وإذا قلنا بأن دو تراسي هو الأب الروحي للمصطلح، فإن كارل ماركس أول من بين «علاقة الأيديولوجيا بشروطها وظروفها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. وبدا ماركس بالتعبير عن مفهوم الأيديولوجيا في كتاباته الفلسفية النقدية ضد كل من هيجل وفيورباخ. فقد اعتبر أن هيغل كان ممثلًا للمثالية الألمانية عن الدول، ورأىٰ أن المشكلة الحقيقية تكمن في أن هيجل اعتبر الأفكار هي الأساس في

(١) كارل ماركس وفريدريك إنغلز، الأيديولوجية الألمانية، ترجمة فؤاد أيوب، دار دمشق، دمشق، ص١٩.

نقطة الانطلاق وليس الواقع والممارسة، في حين يرىٰ ماركس أن الأفكار تنشأ عن الممارسة وتعبر عن الواقع»[1].

و«قرر نيتشه أن المسيحية والاشتراكية والليبرالية، برغم كل هذا الضجيج حول الخلاف الظاهري الدائر بينها، إنما تنطلق من ينبوع واحد. إنما هي مدارس مختلفة في دولة واحدة. وكل واحدة منها تنحدر من سابقتها وتكملها، فهي كلها في النهاية قيم أوروبية، وإن شئت فقل مسيحية»[2].

من خلال ما سبق وبلا أدنىٰ شك أن الأيديولوجيا تستمد مرجعيتها من دين أو من ثقافة أو قاسم فكري مشترك بين مجموعة من الناس، وحتىٰ علىٰ مستوىٰ الفرد فلن تجد فردًا مستقلًا عن الناس تمام الاستقلال، بل يكون جزءًا صغيرًا من أجزاء تكون تجمعًا فكريًّا، هذا التجمع يعبر عنه بالجماعة وهو يحمل أيديولوجيا إما أن تكون إيجابية أو سلبية، وقد تكون منفتحة أو مغلقة أو غير ذلك.

كما أن المجتمع ذاته قد يحمل أكثر من جماعة، كل جماعة تحمل أيديولوجيتها الخاصة، وكذلك الفرد في الجماعة قد يختلف عن فرد آخر في الجماعة نفسها، مما يشكل جماعات جديدة، وهذا يؤيد القول بأن الأيديولوجيا متجددة مع مرور التاريخ ومتطورة حسب الظروف والظواهر المصاحبة، لكنها بطيئة بشكل ملحوظ.

ويمكن أن ندلل علىٰ ذلك من انشقاق الفرق عن الإسلام المحمدي، فتكونت الفرق الجديدة منذ صدر الإسلام الأول، فظهر المذهب الشيعي والخوارج في فترة زمنية واحدة ثم انقسمت هي بدورها إلىٰ مذاهب أخرىٰ، السنة تبلور عن علمائها الأوائل المذاهب الأربعة، والشيعة تفرقوا إلىٰ فرق عديدة منها الاثني عشرية والجعفرية والإسماعيلية والزيدية وغيرها.

والخوارج منذ عرَّابهم ذو الخويصرة ممتدين عبر أيديولوجيتهم التكفيرية القتالية، فمن الحرورية إلىٰ القاعدة وداعش وما ندري ماذا سوف يتوالد عنهم من

---

(١) د. حسين عبد الحميد رشوان، الأيديولوجيا والمجتمع، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ٢٠٠٨، ص ٢٣.

(٢) خالد الغنامي، هل أنت أيديولوجي؟، جريدة الشرق، العدد ٣١٦، بتاريخ ١٥-١٠-٢٠١٢م.

فرق وفرق. وكذلك الصوفية الذين يقسمون إلىٰ طرق وكل طريقة لها شيخها المقدس.

ولو نظرنا إلىٰ حال الدين المسيحي لوجدنا أنه علىٰ مرور الزمن توالدت أيديولوجيات عدة، فمنهم الكاثوليك والبروتوستانت والأرثوذوكس وغيرهم، وكل منهم يحمل فرقًا أيديولوجية متعددة تتبع الكنسية والبابوية.

وبالتالي فإن الأيديولوجيا تستمد مرجعيتها من الوجود الاجتماعي كما قرر ذلك ماركس ومانهايم، وعلماء آخرون رأوا أنها سياسية، ومنهم من اختزلها في كونها اقتصادية أو نفسية، كما يذكر ذلك الدكتور بكري خليل[1]. إلا أن المتتبع للأيديولوجيا تاريخيًا يجد أنها تبلورت تلقائيًا من وحي نفسي وممارسة اجتماعية تحت أحلام طوباوية حتىٰ نضجت أيديولوجيًا، وخلال مراحلها التطورية يلاحظ تطورها معرفيًا، حيث تأثرت بالاقتصاد بشكله الفرداني ثم بشكل قومي كالاشتراكية ونظيرتها الرأسمالية، كما أنها تأثرت بالسياسة كما هو الحال بالتأثر الاقتصادي بيد أن التأثير السياسي علىٰ الأيديولوجيا أقوىٰ وأكثر وضوحًا علىٰ مستوىٰ الأفراد والنخب والمجتمعات.

٢-٥ لكن، من يفسر الأيديولوجيا؟

عودًا علىٰ بدء فإنه لم تكتمل نظرية تجمع بين فرضية وحدة العلق الإنساني وبين تنوع الثقافات البشرية إلا في نطاق الفلسفة الألمانية التي استحدثت مع يوهان هردر مفهومًا جديدًا للتاريخ، وانطلاقًا من فكرة هردر تفرع مفهوم روح العصر ومنه مفهوم الأيديولوجيا كنظرة إلىٰ الكون، وتتالت الآراء التي ترىٰ الأيديولوجيا من أحد الزوايا التي تناسبها.

ففي القرن الثامن عشر كانت الأيديولوجيا هي الأفكار المسبقة الموروثة عن عصور الجهل والاستعباد والاستغلال، فينظر إلىٰ الأيديولوجيا انطلاقًا من العقل الفردي. ثم جاء الفلاسفة الألمان، لتكون الأيديولوجيا منظومة فكرية تعبر عن الروح التي تحفز حقبة تاريخية إلىٰ هدف مرسوم في خطة التاريخ العام، فينظر

(١) د. بكري خليل، الأيديولوجيا والمعرفة مرجع سابق، ص ١٤٥.

إلىٰ الأيديولوجيا انطلاقًا من التاريخ كخطة واعية بذاتها. وبعد نقد الماركسية لها أصبحت الأيديولوجيا منظومة فكرية تعكس بنية النظام الاجتماعي، فينظر إلىٰ الأيديولوجيا انطلاقًا من البنية الباطنية للمجتمع الإنساني. وجاء نيتشه ليقول إن الأيديولوجيا مجموع الأوهام والتعليلات والحيل التي يعاكس بها الإنسان قانون الحياة، فينظر إلىٰ الأيديولوجيا انطلاقًا من الحياة كظاهرة عامة تفصل عالم الجماد عن عالم الأحياء. وبعدهم كان فرويد الذي عرف الأيديولوجيا علىٰ أنها مجموع الأفكار الناتجة عن التعاقل الذي يبرر السلوك المعاكس لقانون اللذة والضروري لبناء الحضارة، فينظر إلىٰ الأيديولوجيا انطلاقًا من اللذة وهي ميزة الحيوان، وبالتالي ميزة الإنسان الأولىٰ.

ويمكن أن يقال بصورة عامة إن مستوىٰ تداخل المدارس الخمسة هو مستوىٰ المناظرة السياسية واجتماعيات الثقافة، وإن المستوىٰ الذي تحافظ فيه كل مدرسة علىٰ هويتها هو مستوىٰ نظرية المعرفة ونظرية الكائن[1].

وقد تعددت النظريات التي تفسر الأيديولوجيا، فمن العلماء من يفسر الأيديولوجيا علىٰ أنها جزء لا يتجزأ من النظرية الاجتماعية الخالصة، وآخرون يقولون إنها نتاج خليط من النظريات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية كالاشتراكية الطوباوية والشيوعية الماركسية وغيرها، ومنهم من يتبنىٰ القول بأنها تتبع النظرية الديمقراطية والنظرية الليبرالية، والمتتبع للتاريخ يجد أن الأيديولوجيا يمكن تفسيرها علىٰ أنها خليط من النظريات الاجتماعية والسياسية والنفسية والاقتصادية وهي متطورة ومتجددة ببطء؛ لأنها ترتكز علىٰ الفكر والمعتقد والتاريخ، وبالتالي كانت في الماضي تفسر بالنظرية الاشتراكية الطوباوية حتىٰ حلت محلها النظرية الاشتراكية الماركسية إلا أن النظرية الرأسمالية بشقيها الليبرالي والديمقراطي السياسي كانت هي المهيمنة علىٰ النظريات المفسرة للأيديولوجيا المعاصرة، ثم حلت الأيديولوجيا السوداء بعدها مباشرة، فحيث وجدت الحروب تجد المجرم يتحرك من دافع سياسي اقتصادي أو تجد خيطًا يقودك لدافع سياسي ديني.

---

(١) عبد الله العروي، مفهوم الأيديولوجيا، مرجع سابق.

فالباحث عن أسباب الحروب العسكرية والحروب الباردة الثقافية والاقتصادية يعلم أن المحرك لها هو الأيديولوجيا الإمبريالية والدليل ما تقوم به متزعمة الإمبريالية الحديثة «الولايات المتحدة الأمريكية» من خلق مشكلات بين الدول وإشعال فتيل الطائفية داخل الدول نفسها.

ومن لا يفهم وجود الإرهاب المعاصر في الشرق والغرب كما يحصل من داعش والقاعدة والحشد الشعبي وما يقوم به النظام السوري ضد شعبه، فالمشترك في تلك الحروب والمجازر والدم البارد بعض الأحيان يجد السبب هو اختلاف المعتقد الديني بين المتناحرين.

٥-٣ النظريات المفسرة للأيديولوجيا:

منذ بروز مصطلح الأيديولوجيا والعلماء والفلاسفة والمفكرون يعكفون علىٰ محاولة تفسير الأيديولوجيا والظواهر المصاحبة لها، كل بما تقتضيه الظروف المحيطة، وربط هذه الظواهر بتاريخها، وكذلك النظر إلىٰ العوامل المؤثرة علىٰ نشوئها وتطورها بل وتفوقها علىٰ غيرها من الأيديولوجيات المتواجدة معها في العصر نفسه، لذلك نجد في عصرنا نظريات مفسرة للأيديولوجيا من ناحية سياسية ودينية واقتصادية واتصالية ومعرفية ونفسية طوباوية ... إلخ تحت أصلها الأيديولوجي الاجتماعي الذي يحتويها كلها أو يتشارك معها في التفسير النظري للأيديولوجيات المتعددة.

٥-٣-١ النظرية الاجتماعية

من نافلة القول أن النظريات الاجتماعية لا تخلو من مضمون أيديولوجي، وبما أن علم الاجتماع يدرس الفرد والجماعة داخل المجتمع بما يحيط بهم من مؤثرات وعوامل داخلية وخارجية، فإننا بذلك نقترب من الباب الذي يوصلنا لتفسير الأيديولوجيا باعتبارها شيئًا -فكرًا أو مذهبًا ينتج سلوكًا فرديًّا أو جمعيًّا- يختص بالفرد نفسه أو الجماعة نفسها داخل النسق الاجتماعي، ولكن بنظرة تأملية تحليلية سعيًا للحصول علىٰ فهم لتلك الأيديولوجيا.

حيث يرىٰ أصحاب النظرية الاجتماعية أو السسيولوجية أن الأيديولوجيات ليست إنتاجًا فرديًّا، ولا يعزىٰ إلىٰ العبقرية الفردية، بل هي إنتاج جمعي، يستند

إلىٰ المجتمع، فالمجتمع هو الأساس الجوهري للأيديولوجيا. وهي في نظرهم ظاهرة اجتماعية، فهي وليدة عصرها، وتبدو في وضع تاريخي محدد، وتتلاءم مع طموحات هذا الوضع، ومع حاجاته وآماله، وتبعًا للأوضاع الاجتماعية المتباينة ولاحتياجات الطبقات الاجتماعية. وبيّن أصحاب هذا الاتجاه الوجهة الاجتماعية للأيديولوجيا في العهود البدائية، ثم تغلغله في الأجيال اللاحقة[1].

٥-٣-٢ النظرية النفسية

تختلف النظرية النفسية لتفسير الأيديولوجيا من حيث إن النظرية الاجتماعية ترىٰ أن الأيديولوجيا ليست إنتاجًا فكريًّا بل إنتاج جماعي، وهذا يقصي الفرد عن كونه يحمل بداخله المكون الرئيس للأيديولوجيا وهو الفكر، فلا يعقل أن يكون الفرد يتأثر بالجماعة أو المجتمع إلا من خلال مكان يدير فيه هذا التأثر الفكري، ومِن ثَمَّ الاقتناع ثم التبني ثم السلوك، أي أن الفرد يتأدلج بعد تعرضه لفكرة وصلت لعقله المستقل عن الآخرين وعن الجماعة والمجتمع، ثم تأثر بالفكرة نفسها، وقد يختلف في المقدار ومِن ثَّمَّ نسبة الإقناع والتبني والسلوك قد تختلف أيضًا.

النظرية النفسية تعتمد علىٰ تفسير الأيديولوجيا من منطلق أنها تتكون من ظروف خارجية تفاعلت مع رغبات داخلية ودوافع تكونت بدورها من محيط آخر أقدم، ثم تتراكم بعدها معتقدات -أيًا كان نوعها- معززة أو أخرىٰ مختلفة حتىٰ تتبلور أيديولوجية الفرد النهائية بعد أن كانت مجرد طوباوية حالمة. إلا أن هذه التصورات والمعتقدات التي نتجت عنها أيديولوجيا لم تكن تدور وتتنامىٰ أو تنصقل في فراغ، بل كان العقل هو الوعاء الذي تطبخ فيه منذ المعرفة الأولىٰ حتىٰ تكونت الصيغة الطوباوية إلىٰ أن تحققت بشكل أيديولوجي نهائي.

يقول الدكتور أحمد الجميعة أستاذ الإعلام والصحافة المشارك، إن «التحليل النفسي الفرويدي يرىٰ العقل موطنًا للأيديولوجيا، ويلتمس وجودها في تصعيد الدوافع .. ودورها في التوازن والتحكم والسيطرة، والتبرير غالبًا، ثم جاءت المدارس المتأثرة به لاحقًا لتؤكد علىٰ دور الوعي في معالجة مسألة الحرية

(١) د. حسين عبد الحميد رشوان، الأيديولوجيا والمجتمع، مرجع سابق، ص ٤٠.

بوصفها أيديولوجيا الفكر الحديث، وإمكانية بلوغ الإنسان حريته بالخروج من دائرة الصراع بين مبدأ التغيير ومبدأ الواقع، وإمكانية خلق حضارة نقدية تقرر المصالحة بين الدافع والحرية والعمل، كما أفرزت دراسات أخرىٰ عن تكامل الوعي الاجتماعي واشتراك الأيديولوجيا والسايكولوجيا الاجتماعية في فرز مدخلات الوعي وعملياته ومخرجاته، في حين اهتمت الأيديولوجيا النفسية بمواجهة الصراع الإنساني بين قنوات التعبير عن الدوافع والإشباع الذاتي»[1].

٥-٣-٣ تجربة تفسيرية عبر النظرية النقدية

أسس بعض المفكرين الألمان -بينهم الفيلسوف ماكس هوركهايمر والاقتصادي فريدريش بولوك- معهد البحث الاجتماعي، وهذا المعهد ذو توجه ماركسي عمل علىٰ نقد الممارسات السياسية لحزبي العمل الألمانيين (الشيوعي والاجتماعي الديمقراطي)، وخاصة رؤيتهما الاقتصادية، التي تعرضت لنقد لاذع. وحرص المعهد علىٰ تعديل المنهج الماركسي في قراءة التاريخ، وذلك بإدماج عُدّة منهجية مستوحاة من فلسفة الثقافة، والأخلاق، وعلم النفس السوسيولوجي، وعلم النفس التحليلي. والهدف من ذلك هو الجمع بين ماركس وفرويد.

في الفترة نفسها، وفي استقلالية تامة كان عالم التحليل النفسي النمساوي ويلهالم رايش، يسعىٰ إلىٰ تطوير دراساته حول علم نفس الجماهير المهووسة بالنازية، وقد مثّلت أول مقاربة فرويدية ماركسية تناولت ميكانيزمات إدارة الفضاء الرمزي في الأنظمة الاستبدادية[2].

٥-٣-٤ النظرية السياسية والنخب

لعل حقبة التنوير والخروج علىٰ الكنسية كانت تمثل منحرَفًا للواقع، وبعده بدأت الأيديولوجيا الكهنوتية بالاضمحلال ونشأت بعدها أيديولوجيا بديلة، لكن ماهيتها لم تكن سريعة التبلور، ومع ذلك فقد قادها الفلاسفة ثُمَّ الساسة، وهنا يجدر الانتباه إلىٰ أن النقطة الحرجة التي مرت بها أوروبا ومن بعدها العالم كانت بداية الصعود للأيديولوجيا الإمبريالية التي تركت الشعوب بين المطرقة والسندان،

---

(١) د. أحمد الجميعة، الأيديولوجيا النفسية!، جريدة الرياض، ٢٠١٨/٢/١٩م.

(٢) أرمان وميشال ماتلار، تاريخ نظريات الاتصال، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط٤، ص ٨٦.

بين الاشتراكية والرأسمالية، ولكن خلال معارك الشد والجذب بدأت بعض الإمبراطوريات بالتفكير فيما بعد السيادة وهو التمدد والهيمنة، وبذلك تكونت أيديولوجيات جديدة لا تشابه الأيديولوجيات السابقة؛ لأنها تكونت في ظل وجود حريات اجتماعية وعقدية وملأ هذا الفراغ بالتأكيد الطابع السياسي، وهذا ما يفسر الحروب والدمار الذي حصل في الحروب العالمية.

إذًا النظرية السياسية هي إحدىٰ النظريات التي يمكن تفسير بعض الأيديولوجيات من خلالها، ولعل عصرنا هذا يُعتبَرُ امتدادًا للحروب العالمية، حيث ما زالت الحرب الباردة بين المعسكر الشرقي والغرب مستمرة، وإن اعتقدنا في مرحلة سابقة انتهاءها أي بعد سقوط الاتحاد السوفياتي، لكن روسيا عادت وهي الآن روسيا اتحادية تحاول لملمة شتاتها، وتنازع أمريكا في إشعال الصراعات في الشرق الأوسط وتشارك فيه كلاعب رئيس.

لذلك يصح القول بأن النظرية السياسية هي أقوىٰ النظريات المفسرة للأيديولوجيا بالنظر للمشهد العالمي، وكذلك تتشارك مع النظريات الأخرىٰ مثل النظرية المعرفية والنفسية والاجتماعية والنقدية.

٥-٣-٥ نظريات ما بعد الحداثة

يرىٰ بعض المفكرين والنخب أن الحداثة لم تعد موجودة وسادت بعد الحداثة أيديولوجيات انبثقت منها أيديولوجيات لها توجهات جديدة لم تكن تستطيع الحداثة احتضانها، وهذا هو سبب انتهاء الحداثة.

هذه الأيديولوجيا العصرية غلب عليها الطابع المفروض كالسياسة والاقتصاد مثل الرأسمالية والاشتراكية، إلا أن هؤلاء المفكرين يرون أن الليبرالية هي المفسر الحقيقي لكل ما يجري في العالم من أحداث سياسية واقتصادية وإعلامية وحتىٰ دينية.

بطبيعة الحال لا يعني ذلك عدم وجود تفسيرات للأيديولوجيات الأخرىٰ، لكن النظرية الليبرالية تفسر كثيرًا من الظواهر السياسية والتحالفات الدولية، وعلىٰ مستوىٰ الجماعات والأفراد هيمنة الفكر الرأسمالي علىٰ سكان المعمورة والعولمة الثقافية سيطرت علىٰ الإعلام، وصار الناس تحت رحمة الإعلام الموجه ويتصرف

بناءً علىٰ أجندة هذا الإعلام، ومن ناحية أخرىٰ فالحرية بصورتها الديمقراطية ومسؤولية الاجتماعية تعبر عن تطلعات الأفراد والمجتمعات كافة، ومثال ذلك المجتمع المسلم والمجتمعات التي تعيش تحت الحكم السلطوي هي أيضًا تتطلع إلىٰ الديمقراطية والحرية، وترغب في التشارك مع العالم عن طريق مباشر كالسفر والسياحة والاستثمار، وعن طريق غير مباشر كالمشاركة في المعرفة والترفيه عبر وسائل الإعلام ووسائل التواصل الاجتماعي وغيرها.

- ٦ -

علاقة الأيديولوجيا بطرح الأسئلة

الأيديولوجيا تظهر في صورتها النهائية كسلوك بشري إما جمعي أو فردي، إلا أن الأيديولوجيات ليست سواء فمنها علىٰ المستوىٰ الفكري البناءة ومنها الهدامة، وعلىٰ المستوىٰ الاجتماعي تجدها مغلقة، إلا أنها قد تكون مفتوحة بمعنىٰ قبول المشاركة، وليس قبول التغيير أو التغيير علىٰ فترات زمنية طويلة، وقبول التغيير السريع لا يمكن تصوره إلا من خلال التغير الفردي.

وفي نهاية المطاف جميع الأيديولوجيات التي تعاصرنا هي إما منكفئة علىٰ نفسها، أو أيديولوجيا إيجابية أو أيديولوجيا مغلقة سلبية، والأولىٰ ليس منها خطر كجماعة الأيمش مثلًا والإيجابية مثل التي قادت التنوير والانقلاب علىٰ سلطة الكنسية التي هي بدورها كانت سلبية، لكن المهم هنا هو الأيديولوجيات السلبية المعاصرة التي تدمر كل شيء يخالف معتقداتها كتنظيم القاعدة وداعش والحشد الشعبي والإخوان وغيرهم. والسؤال لِمَ هذا التوحش والرجعية والراديكالية والانغلاق والسوداوية التي يعيشونها وتحول سلوكهم إلىٰ أداة قتل وتفجير وإرهاب وإقصاء؟

هذا السؤال هو السؤال الرئيس في محاولة لفهم الأيديولوجيات المختلفة والأيديولوجيا الرجعية في مقدمتها، وبالتالي نتساءل كيف أن الأيديولوجيا يمكن أن تغير الحياة علىٰ سطح الأرض من نعيم إلىٰ جحيم، ومن سلام إلىٰ حرب، ومن حياة تكافلية إلىٰ نظم إمبريالية؟

ومن هنا يتبادر إلىٰ الذهن سؤال، ألأيديولوجيا السلبية هي السبب الوحيد في تواجد جماعات قتالية منتشرة في الكثير من الأقاليم الملتهبة سياسيًا أم أيديولوجيات أخرىٰ تدخلت لتوصل القتاليين إلىٰ ساحة الفوضىٰ؟ وهل كل ما نراه من قتال وصور مرعبة لنحر الرجال والشنق والحرق كما في العراق وسوريا وبورما وغيرها، صور وأخبار حقيقية أم أن هناك من يتلاعب بالعقول من خلال تزييف الحقائق ونقل أخبار واهية أو تضخيم متعمد؟

أيضًا لو أردنا أن نثير تساؤلًا داخليًّا، كيف لمسلم أن يقتل مسلمًا آخر مثل الدواعش الذين يقتلون آباءهم وأمهاتهم؟ وهذا يجرنا لسؤال أهم كيف ظهرت الجماعات القتالية التكفيرية؟ مَن أنشأها ومَن ساعد في تمركزها وتمويلها؟ وكيف تنتشر بهذه السرعة وكيف يخدع هؤلاء بهذه السهولة؟ آلعامل الديني غير المنضبط سبب أم عنصر ويبقىٰ عناصر أخرىٰ مثل الأمور السيكولوجية والعوامل الاجتماعية غير الأيديولوجية مثل المستوىٰ التعليمي والدخل ومستوىٰ الذكاء؟

لماذا غالبية الأيديولوجيات منغلقة لا تقبل الآخر ولا تقبل التفاوض؟ ولماذا لا تتغير بسرعة رغم وجودنا في عصر تتوفر فيه إمكانيات تساعد علىٰ التغيير مثل التقدم التقني وزيادة مصادر المعرفة وسهولة الوصول إلىٰ المعلومات الحقيقية؟

ومن جانب آخر هل يوجد أيديولوجيا إيجابية؟ وكيف نعرف أنها أيديولوجيا إيجابية وليس برجماتية نفعية كالمصالح التجارية والعلاقات السياسية والأمنية ...إلخ؟ وفي حال كانت إيجابية حقيقة فلِمَ لَمْ تتدخل في إيقاف الحروب ونشر السلام وإزاحة الإمبريالية الغربية والشرقية وتكون هي المسيطرة؟ فمن المسلمات أن الخير ينتصر علىٰ الشر! أم أن المرحلة هذه كانت الأيديولوجيات السلبية (التكفيرية القتالية والإمبريالية) أقوىٰ من الأيديولوجيا الإيجابية الفطرية؟ وهل يمكننا أن نعتبر الإسلام أيديولوجيا مغلقة؟ وهل هي إيجابية؟ بالتأكيد نعم، لكن لماذا لا يرانا الآخرون كذلك؟

والسؤال الملح الذي تطرحه الأيديولوجيا، آلواقع الذي نعيشه هو بسبب الأيديولوجيا التي نعيشها في داخلنا أو التي نتعايش معها في محيطنا المحلي

والإقليمي والعالمي أم إن الأيديولوجيا فقط جزء من الواقع الاجتماعي ويبقىٰ مؤثرات أخرىٰ يجب الاهتمام بها وتفكيكها لمعرفة ماهيتها وأسرارها وهذه مهمة الفلسفة بالدرجة الأولىٰ؟

وفي نهاية المطاف يجب أن نقول إنه إذا كانت الفلسفة هي من تطرح التساؤلات، فإن الأيديولوجيا منجم ممتلئ بالأسئلة حول المفاهيم والمعتقدات والسلوكيات الغريبة والمريبة التي تحتاج إلىٰ إجابات.

- ٧ -

الأيديولوجيا المعاصرة

الأيديولوجيا ليست شيئًا ملموسًا يسهل تحديد شكله وتطوره ووضعه الحالي، بل إنه واقع فكري تم تبني أفراده وجماعاته لمعتقداتهم وصاروا يتعايشون مع الواقع ضمن أيديولوجيتهم الخاصة، وكذلك القول بالنسبة للمجتمع برمته، لكن هذا يشكل غطاءً للعموم، أما عند النظر بعين ثاقبة فإن الواقع يجعلك ترىٰ أيديولوجيات طغت علىٰ أخرىٰ في هذا العصر.

في العصر الحجري لا تشكل الأيديولوجيا عندهم أكثر من تبني فكرة النزاع علىٰ مصادر الماء والمرعىٰ ومصادر الرزق الأخرىٰ، لكن مع تطور المجتمعات فقد تطورت الأفكار والاهتمامات وزادت المنافسة علىٰ كل المستويات، حتىٰ تجلت الهيمنة الدينية والسياسية ثم الاقتصادية تزامنا مع الاكتساح الثقافي.

أما في عصرنا هذا فتحديد أهم أو أقوىٰ الأيديولوجيات من الصعب بمكان، إلا أنه منذ سقوط الكنيسة الأوروبية وصعود نجم الحرية والنهضة، برزت في الساحة العالمية الأيديولوجيا الديمقراطية والرأسمالية، ومن ثم المسؤولية الاجتماعية ثم حضرت بقوة أيديولوجيا الاشتراكيين شيوعية وماركسية وأيديولوجيا السلطة السياسة والهيمنة من قبل النخب الحاكمة والنخب السياسية.

ولو أرجعنا تلك الأيديولوجيات لأصلها الفكري والنفسي والمعرفي لوجدنا أنها لا تخرج عن أيديولوجيا سياسية وأيديولوجيا دينية وأيديولوجيا اجتماعية مع مزيج متجانس منها.

ويرىٰ الدكتور الجميعة «رغم تعدد تصنيفات الأيديولوجيا -كنظام من الأفكار يتكون في مرحلة تاريخية معينة-، إلا أن الباحثين يرون أن التصنيف الأيديولوجي مردّه في النهاية إلىٰ أيديولوجيا سياسية، حيث تبدأ ثورية في التبرير للأنظمة أو الجماعات، ومنحهم مزيدًا من الشرعية في القبول، ثم تتحول إلىٰ أيديولوجيا حاكمة بعد بلوغ دعايتها ومشروعها سدة الحكم، فالديمقراطية مثلًا بدأت أيديولوجيا ثورية في القرن الثامن عشر، ثم تحولت إلىٰ أيديولوجيا سياسية حاكمة في أميركا، وكذلك كانت الماركسية أيديولوجية ثورية عام ١٩١٧، أي قبل قيام الثورة البلشفية في روسيا، وأصبحت أيديولوجية حاكمة بعد ذلك»[١].

وهنا لا بد من وقفة مع أهم الأيديولوجيات التي تحيط بنا من كل الجهات الجغرافية والسياسية والدينية والعرقية، وعند التدقيق في ماهيتها الأصولية تجد أنها خليط من أيديولوجيات سياسية ودينية واجتماعية، وما داعش إلا امتداد لأيديولوجيا دينية رجعية، والإخوان أيديولوجيا دينية سياسية، وتركيا وإيران تعتبران أيديولوجيا اجتماعية (عرقية) سياسية بغطاء ديني، الكيان الصهيوني (إسرائيل) أيديولوجيا دينية اجتماعية (عرقية) سياسية.

ومن ناحية أخرىٰ تهيمن أمريكا وحلفاؤها علىٰ العالم مع عودة روسيا بعد أن انسلخت من جلدها الاتحادي المنهار، وفي السباق العالمي نفسه علىٰ الهيمنة بدأت دول في الصعود الاقتصادي الذي سيؤثر في الحضور السياسي ومنها الصين وتركيا وكوريا واليابان، وكل هذه الدول تعمل ضمن أيديولوجيات سياسية تندرج تحتها أهداف اقتصادية وأيديولوجيات دينية عقدية ومذهبية، استعمل في تمكين هذه الأيديولوجيات كل الإمكانيات العلمية والتقنية والإعلامية والائتلافات المتباينة من أجل الهدف السياسي أولًا ثم الأهداف الاقتصادية والدينية. وسوف نعرض بعضًا منها دون إسهاب لأهميتها كأيديولوجيات معاصرة وخطرة علىٰ العالم وعلينا قبل غيرنا.

---

(١) د. أحمد الجميعة، أيديولوجيا الإخوان.. الخافي أعظم!، جريدة الرياض، ٢٠١٧/٧/٨م.

٧-١ الأيديولوجيا السوداء

رغم أن بعض الفلاسفة وعلماء الاجتماع والسياسة وغيرهم اعتبروا الأيديولوجيا موشومة، أي أنها تمثل جانبًا سلبيًّا من معتقدات بعض الأفراد والجماعات نتيجة لسلوكياتهم الخاطئة ولوجود جماعات مستقلة وأعراق ومجموعات إثنية يظهر على فكرهم التطرف أو التقوقع أو الإفراط في المسائل اللاهوتية والدينية. إلا أن ذلك لا يمثل الصورة الكاملة للأيديولوجيا، حيث إن فيها جانبًا مشرقًا يحتاج إليه العالم بأسره، ولا يمكن للتطور أو التقدم التكنولوجي والمعرفي السير دون أن تكون الأيديولوجيا هي الطريق المنير لهذا التقدم، وذلك بسبر أغواره ومعرفته ومعرفة مكنوناته السلبية والإيجابية التي هي في الواقع العوامل المؤثرة على الفرقاء في عالمنا هذا قبل الأصدقاء.

ولنلقي الضوء على جزء يسير من هذه الأيديولوجيات التي نعتقد أنها تمثل الجانب المظلم من الأيديولوجيا، اخترنا بعض الأمثلة لتوضيح ماذا نعني بالأيديولوجيا السوداء، وهي على سبيل المثال لا الحصر، ومنها:

٧-١-١ الأيديولوجيا الجامدة

وهي التي تقوقعت على نفسها، أي أن أيديولوجيتها تعني لها الانكفاء والاكتفاء عن الآخرين وإنتاجهم الفكري والمعرفي والاعتقادي الديني والمجتمعي، مثل غلاة الصوفية، وطائفة الآميش الأميركية. ويجتمع فيهما الفكر الانعزالي عن العالم والزهد عن الحضارة والتكنولوجيا والتمدن، وغلاة الصوفية انعزالهم أقرب إلى الفكر الإسلامي المتطرف، في حين تمثل طائفة الآميش غلاة المسيحيين وهم في تقوقعهم وعزلتهم هذه ردة فعل على اضطهاد وتكفير الكاثوليك والبروتوستانت لهم.

وغلاة الصوفية هم طائفة من المسلمين الذين ابتدعوا لهم طريقًا هو أقرب إلى الزهد المفرط وتأليه شيخ الطريقة الصوفية الذي يعتقدون قدسيته، وأنه لا يحاسب فلا تكليف عليه بعد مرحلة يسمونها الكشف، كما أن بعض طرقهم يكون شيخهم مقربًا إلى الله ويعلم الغيبيات والمستقبل، وأمورًا أخرى مثل وحدة الوجود والحلول، وهي من الكفر البواح الذي لا تقبله سائر طوائف المسلمين.

وما يهمنا هنا أنهم جماعة منغلقة علىٰ نفسها وأفرادها وزهدت في التكنولوجيا والتقدم والنهضة والحضارة، لكن مع مرور السنين بدأ غلاة الصوفية في مجاراة باقي الطرق الصوفية في الانفتاح علىٰ العالم والأخذ من منتوجاته المختلفة، ويبقىٰ الانغلاق المذهبي مستمرًا.

أما طائفة الآميش فهم أشد تطرفًا دينيًّا وزهدًا في حضارة الرجل الأبيض، فهم حتىٰ الآن يعيشون في أماكنهم لم يغادروها ومعظمهم في أمريكا وبعضهم في كندا، ولهم مدارسهم الخاصة، ولا يستخدمون الهاتف ويحرمون الموسيقىٰ والتصوير، ولا يحلقون لحاهم ولا يشربون الكحول ولا يجيزون المعاشرة الجنسية قبل الزواج، بالإضافة إلىٰ كثير من المعتقدات المتوارثة جيلًا بعد جيل، مستمدة من كتبهم المقدسة (الأناجيل المحرفة) وتعاليم رجال الدين القدماء.

ما يهمنا هنا هو الفكر لدىٰ هاتين الجماعتين من الانغلاق علىٰ المحيط العرقي أو المذهبي، وعدم الأخذ بأسباب الرفاهية ورفض التقدم والنهضة جملة وتفصيلًا.

ورغم ذلك فإن الانفتاح علىٰ الآخر وعلىٰ التقنية الذي حصل لغلاة الصوفية في الأزمنة المتأخرة، وكذلك قبول الآميش ببعض التمدن مثل استخدام السيارات للضرورة وقيادة المرأة للسيارة في بعض الولايات بشروط، ذلك يعني أن الأيديولوجيا مهما كانت سوداء أو متقوقعة إلا أن التغير سنة كونية تكون سريعة عند المتحضرين وبطيئة عند المتقوقعين، أي أن التغير من أيديولوجيا إلىٰ أخرىٰ ممكن علىٰ مدىٰ طويل.

٧-١-٢ الأيديولوجيا المتمددة (السرطانية)

وهنا نعني بها الأيديولوجيات التي تنهج الفكر التوسعي علىٰ المستوىٰ الديني أو السياسي، سواء برفض الآخر أو قبوله، ومن ذلك الفكر الإرهابي منذ عهد الخوارج الذين وضحت أفعالهم في عهد علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان رضي الله عنهما، وهم امتداد لذو الخويصرة رأس الخوارج الذي أشار إليه الرسول ﷺ، وامتدادهم معروف علىٰ مر التاريخ إلىٰ عصرنا هذا، ومنهم تنظيم القاعدة وداعش والحشد الشعبي.

وعلىٰ مستوىٰ الأيديولوجيا السياسية المذهبية نرىٰ إيران تتربع علىٰ عرش الأيديولوجيا السوداء السرطانية، التي عرف عنها ذلك الولع التمددي منذ أن كانت الإمبراطورية الفارسية التي حكمت جزءًا كبيرًا من العالم المعروف آنذاك. وها هي تحاول إحياء أمجادها الفارسية بالتدخل في شؤون الدول المجاورة سياسيًا وديموغرافيًا وبالاحتلال المباشرة جزئيًا في مراحل أولية، وكليًا في المراحل الأخيرة، وكذلك تنتشر وتتوسع بنشر مذهبها في شرق آسيا ودول جنوب وغرب إفريقيا.

كذلك من الأيديولوجيات المتمددة التي لا تقبل الآخر الحركة الصهيونية التي ظهرت علىٰ يد الصحفي اليهودي النمساوي المجري، تيودور هرتزل، وتأسيس الحركة الصهيونية بعد انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بازل السويسرية بين ٢٩ و٣١ أغسطس ١٨٩٧ وانتخاب هرتزل رئيسًا للمنظمة الصهيونية العالمية.

ومنذ ذلك اليوم تكاتف أعضاء هذه الحركة الأيديولوجية السوداء (الصهيونية) علىٰ تنفيذ مخططهم الذي يضمن لهم الوصول إلىٰ أرض الميعاد أرض فلسطين، وقد تم لهم ذلك إلا أن الأيديولوجيا التي تسيرهم توسعية لا تقبل الآخر مما جعلهم يحتلون معظم الأراضي الفلسطينية العربية الإسلامية الأصل والتأريخ.

أما تركيا فتمثل الأيديولوجيا المتمددة التي قد تقبل الآخر رغم أن تاريخها لم يثبت أنها قبلت الجميع بعدل وإنصاف، وها هي تحاول استعادة أمجادها العثمانية تارةً بالدفاع عن بعض قضايا الأمة الإسلامية كقضية فلسطين وسوريا وبورما وغيرها، وهذا من اللعب علىٰ الوتر العاطفي للمسلمين، وتارة بالتلويح بعدم أهمية الانضمام للاتحاد الأوروبي، لإيهام المتعاطفين معها بأنها هي من يرفض هذا الاتحاد الذي لم يكن عادلًا مع قضايا المسلمين، ونسيت أنها عضو في حلف شمال الأطلسي (الناتو).

ورغم أن محاولاتها العاطفية تحصد لها متعاطفين من شتىٰ أصقاع المعمورة، إلا أن بعض تحركاتها السياسية الإقليمية والدولية تضع النقاط علىٰ

الحروف لمن أراد فهم الأيديولوجية التركية منذ سقوط الخلافة العثمانية وبعد الحكم الأتاتركي إلىٰ يومنا هذا، ورغم تعدد الأطياف السياسية والمذهبية التي حكمت تركيا الحديثة إلا أن الأيديولوجيا التي تسيرهم واحدة لدىٰ أغلبية حكامها، وهي عودة العثمانية الإسلامية أو العلمانية.

وهذه الدول (إيران وتركيا وإسرائيل) بهذه الأيديولوجيات تمثل مثلث الشر في المنطقة، فهي امتداد للأطماع الفارسية والعثمانية، والحلم الصهيوني (رغم رفضنا للوجود الإسرائيلي وعدم الاعتراف بها كدولة إلا أنها حقيقة يجب التعامل معها) والملاحظ هنا أن هذه الدول الثلاث ليست في المستوىٰ الأيديولوجي التوسعي نفسه، ومن باب الإنصاف ألّا نعتبرَ الخطر التركي علىٰ المنطقة مثل الخطر الإسرائيلي أو الخطر الإيراني. وفي الوقت نفسه لا يخفىٰ علىٰ المتابع لهذه الدول أن يلحظ التعاون فيما بينها بعدة أشكال علىٰ المستوىٰ التجاري والسياسي والاقتصادي.

٢-٧ الحاجة للأيديولوجيا

تسابق علماء الفلسفة والاجتماع والسياسة والمهتمين بالفكر لدراسة الأيديولوجيا بعد بداية تبلورها علىٰ يد المؤسس لها الفيلسوف دو تراسي، وظهرت تعريفات كثيرة لها ومفاهيم، كلٌّ يرىٰ هذه الأيديولوجيا من الجانب العلمي الذي يعمل فيه أو بحسب المصالح التي يراها من خلالها. ورغم وجود تباين خفيف إلىٰ متوسط بين هؤلاء العلماء والفلاسفة في مفهومهم للأيديولوجيا إلا أن هذا الوعي كان له أثر بالغ في معرفة تبني الأفراد والمجتمعات لأفكار ومعتقدات تختلف من مجتمع لآخر بناءً علىٰ الثقافة السائدة والمرجعيات العقدية والمصالح القومية والوطنية. هذا بدوره قاد البشرية إلىٰ الديموقراطية والحرية والنهضة بشتىٰ مجالاتها حتىٰ انطلاق الثورة الصناعية التي نعيش علىٰ تطور مخرجاتها.

ورغم أن عصرنا هذا يعاني من تفاقم البرغماتية النفعية، والإمبريالية بشكلها الفكري والعسكري والتجاري والإعلامي والاقتصادي، إلا أن جميع المجتمعات والدول في حاجة إلىٰ الأيديولوجيا التي يمكن من خلالها التعرف علىٰ خصائص

المجتمع وتجانسه فكريًا وانتمائيًا، ونحن أيضًا نحتاج إليه لدراسة المجتمعات الشرقية والغربية والدول المجاورة، وحتىٰ الدول الصديقة قبل العدوة، لمعرفة طريقة تفكير هؤلاء الأضداد والأصحاب، وبناءً عليه ومن خلال فهم الأيديولوجيات التي تحرك الآخرين يمكننا وضع خططنا السياسية والاجتماعية والاقتصادية وكذلك الإعلامية، التي صارت مهمة جدًّا في عصرنا الحديث لما لها من تأثير علىٰ الصورة الذهنية من إبراز أو تحسين إذا كانت مشوهة.

نحن -العرب والمسلمين- نهتم بالميتافيزيقا وعالم الغيبيات، حيث إننا نهتم بمعرفة الخالق ومصيرنا بعد الموت وأحوال يوم القيامة وما بعد الحساب، إلا أن ذلك لم يكن ليعرقل حماس العلماء والكتاب والباحثين العرب والمسلمين من خوض مجال دراسة الأيديولوجيا لما لها من أهمية ذكرناها في السطور السابقة.

ونخلص من ذلك إلىٰ أن الأيديولوجيا كانت وستكون محط أنظار الفلاسفة وعلماء الاجتماع والسياسة والاقتصاد والإعلام وكثير من الباحثين والنخب والكُتاب، وسيكون لها حظوة مثلما حظيت الفلسفة باهتمام بالغ وما زالت؛ وذلك لأنها تفسر كثيرًا من الظواهر التي تعجز الفلسفة أو العلوم الاجتماعية الأخرىٰ أو التكوينات العقدية علىٰ تفسيرها، ذلك عند النظر لما يحصل للأفراد والدول والأعراق والمجتمعات من تباين في الفكر والاهتمامات والعادات والتقاليد وحتىٰ معدلات الجريمة وتكون الأحزاب السياسية المختلفة، وأيضًا النزاعات البينية والدولية والإقليمية.

٧-٣ مستقبل الأيديولوجيا

يرىٰ البعض أن أسطورة نهاية الأيديولوجيا هي من ابتداع بعض مفكري النظام الرأسمالي، وهم يحاولون الترويج لهذه الأسطورة من أجل إخفاء الصراع الأيديولوجي وإخفاء التناقضات التي تنطوي عليها الأيديولوجيا البرجوازية. وقد حاول هذا التيار الفكري عزل التكنولوجيا عن الأيديولوجيا، فالوحدة البشرية لن تتحقق من خلال وحدة أيديولوجية، وإنما من خلال وحدة تكنولوجية. ويرىٰ البعض أن الصراع الأيديولوجي في المفهوم البرجوازي مجرد وسيلة للسيطرة وتبرير المواقف الإمبريالية[١].

(١) سمير كرم، نظريات نزع السلاح الأيديولوجي، الطليعة، العدد الأول، السنة التاسعة، يناير ١٩٧٣.

ظهرت محاولات عديدة تروج لأسطورة نهاية الأيديولوجيا من أجل إخفاء التناقضات داخل النظام الرأسمالي وإغفال الصراع الأيديولوجي، ومن أهمها محاولات ريمون آرون وسيمور ليبست وجالبراث وغيرهم. فنجد المفكر الفرنسي ريمون أرون يدعو إلىٰ ما يسمىٰ تفتيت الأيديولوجيا، ويوضح أن السلام العالمي لا يمكن أن يتحقق إلا في اليوم الذي يكف فيه الساسة عن اعتبار الصراع الأيديولوجي أمرًا حتميًا[١].

كما أوضح سيمور ليبست أن الديموقراطية المستقرة أدت إلىٰ نهاية الأيديولوجيات، حيث حقق العمال المواطنة واختفىٰ الصراع الطبقي وارتفعت معدلات الحراك الاجتماعي، وقد أدت هذه التغييرات إلىٰ اختفاء الصراع الأيديولوجي[٢].

وكذلك أوضح دانيال بيل في كتابه (نهاية الأيديولوجيا) ١٩٦٠ أن العصر الأيديولوجي قد انتهىٰ، وأن الراديكالية السياسية-الاقتصادية قد فقدت معناها؛ لأن العالم الغربي حقق ما يسمىٰ (مجتمع الوفرة)، وتم استيعاب الطبقة العاملة وانتشرت القيم الديموقراطية والتعددية السياسية؛ ولذلك فإن الأيديولوجيا فقدت حيويتها الثقافية والسياسية[٣].

وأوضح ياكوب باريون أن مقولة «نهاية الأيديولوجيا» هي مقولة أيديولوجية، ولا يمكن التحرر من الأيديولوجيا، حيث إن الأيديولوجيا لا تنحصر في الفكر النظري، إذ إنها تقوم بدور حاسم في تقييم طابع الحياة الاجتماعية وتوجيه الفعل الاجتماعي للإنسان. فتتضمن الأيديولوجيا (نسقًا متكاملًا من النظريات والأفكار والأحكام القيمية، تتصف باتساع مداها وشمول محتواها).

وقام عالم الاجتماع الراديكالي س. رايت ميلز بتوجيه الاتهام لمناصري القول «بنهاية الأيديولوجيا» بأنهم (محافظون صريحون وليبراليون متعبون

---

(١) مراد وهبه، أية أيديولوجيا، فصول، الأدب والأيديولوجيا، ج٢، مج٥، العدد الرابع، يوليو ١٩٨٥، ص٣٤.

(٢) أحمد أنور، النظرية الاجتماعية والأيديولوجيا، مركز المحروسة للنشر، القاهرة، الطبعة الأولىٰ ٢٠٠٦ ص٢٤.

(٣) أحمد أنور، النظرية الاجتماعية والأيديولوجيا، مرجع سابق، ص٢٥.

وراديكاليون ساخطون) وأوضح ميلز أن القول بنهاية الأيديولوجيا يقوم علىٰ وهم التحرر من أي التزام حقيقي[1].

أيضًا نقد عديد من المفكرين مقولة نهاية الأيديولوجيا ومنهم ميشيل نوفاك وستيفين كالمان، فقد أوضحا أن حركات التحرر الوطني والحركات النسوية وحركات الطلاب والملونين تؤكد عدم انطفاء الأيديولوجيا، بل علىٰ العكس فهو موجة متصاعدة من الوهج الأيديولوجي في البلاد الصناعية الغربية.

وقد أوضح كريستوفر لاش أن المجتمع ما بعد الصناعي شهد تفجر صراعات جديدة أدت إلىٰ (انبعاث الأيديولوجيا)، وهو ما تجلىٰ في الثورات والإضرابات والتمردات.

ويؤكد بول لوتر ١٩٩٥ أن نهاية الأيديولوجيا شعوذة، حيث إنها تحاول أن تطمس الاختلافات الفكرية والسياسية.

(١) راسل جاكوبي، نهاية اليوتوبيا، السياسة والثقافة في زمن اللامبالاة، ترجمة فاروق عبد القادر، عالم المعرفة، العدد ٢٦٩، الكويت، مايو ٢٠١١، ص ١٨-١٩.

المراجع

المراجع العربية:

١- إبراهيم مدكور، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٨٣.

٢- أحمد أنور، النظرية الاجتماعية والأيديولوجيا، مركز المحروسة للنشر، القاهرة، الطبعة الأولىٰ ٢٠٠٦.

٣- أحمد أنور، النظرية والمنهج في علم الاجتماع، محاضرات في كلية التربية جامعة عين شمس، غير مذكور سنة الدراسة.

٤- بكري خليل، الأيديولوجيا والمعرفة، دار الشروق للنشر والتوزيع، رام الله، الطبعة الأولىٰ ٢٠٠٢.

٥- حسين عبد الحميد رشوان، الأيديولوجيا والمجتمع، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ٢٠٠٨م.

٦- سمير كرم، نظريات نزع السلاح الأيديولوجي، الطليعة، العدد الأول، السنة التاسعة، يناير ١٩٧٣.

٧- عبد الله العروي، مفهوم الأيديولوجيا، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثامنة ٢٠١٢م.

٨- مراد وهبه، أية أيديولوجيا، فصول، الأدب والأيديولوجيا، ج٢، مج٥، العدد الرابع، يوليو ١٩٨٥.

٩- مراد وهبة، محاضرات في الأيديولوجيا والحضارة، ج٥.

١٠- معجم العلوم الاجتماعية والفلسفية، نيويورك ١٩٤٤م.

١١- نبيل رمزي، سوسيولوجيا المعرفة، جدل الوعي والوجود الاجتماعي، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية، ٢٠٠١.

المقالات:

١- د. أحمد الجميعة، الأيديولوجيا النفسية!، جريدة الرياض، ٢/١٩/ ٢٠١٨م.

٢- د. أحمد الجميعة، أيديولوجيا الإخوان.. الخافي أعظم!، جريدة الرياض، ٢٠١٧/٧/٨م.

٣- خالد الغنامي، هل أنت أيديولوجي؟، جريدة الشرق، العدد ٣١٦، بتاريخ ١٥-١٠-٢٠١٢م.

٤- شايع الوقيان، متىٰ تصبح الفلسفة أيديولوجيا؟، جريدة عكاظ، ٢٣ ابريل ٢٠١١م.

٥- مفهوم الأيديولوجيا، مبارك عامر بقنه بتاريخ: ١٧ ديسمبر ٢٠١١م علىٰ موقع: اتجاهات معرفية .www.bugnah.com

المراجع المترجمة:

١- أنتوني جيدنز، «مقدمة نقدية في علم الاجتماع»، ترجمة أحمد زايد وآخرين، مطبوعات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ٢٠٠٢.

٢- ديفيد هوكس، «الأيديولوجيا»، ترجمة إبراهيم فتحي، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلىٰ للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٠.

٣- دينكين ميتشيل، «معجم علم الاجتماع»، ترجمة إحسان محمد الحسن، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨١.

٤- بيرك، باري، نظريات ما بعد الحداثة، ترجمة حارث حسن وباسم خريسان، مجلة المعرفة، وزارة الثقافة، دمشق، العدد ٤٦٧، آب-أغسطس ٢٠٠٢.

٥- هنري ايكن، عصر الأيديولوجية، ترجمة فؤاد زكريا، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٣.

٦- كارل ماركس وفريدريك إنغلز، الأيديولوجية الألمانية، ترجمة فؤاد أيوب، دار دمشق، دمشق.

٧- أرمان وميشال ماتلار، تاريخ نظريات الاتصال، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط٤.

٨- راسل جاكوبي، نهاية اليوتوبيا، السياسة والثقافة في زمن اللامبالاة، ترجمة فاروق عبد القادر، عالم المعرفة، العدد ٢٦٩، الكويت.

المراجع الإنجليزية:

1- Becker,S. (1984) Marxist approaches to media studies: the British experience. Critical Studies in Mass Communication.

2- Hall. S.(1986) The problem of ideology. Journal of Communication Inquiry. 10, (2).

3- Lilleker, Darrn D. (2006). Key Conepts in Political Communication. London: Sage Publication.

4- Jary, D. and Julia,J., Sociology)The Harper Collin Dictionary(, Harper Perennial, N.Y, 1991.